

الفهرس

١	الفهرس.....
٣	ماهية اللغة وأشكالها.....
٣	توطئة.....
٣	مقدمة:.....
٤	تحديد اللغة:.....
٤	اللغة وسيلة تعبير:.....
٥	اللغة هي وسيلة تواصل:.....
٥	ثالثا، اللغة هي تجسيد لشخصية مستخدميها، وافكاره، وعواطفه، ومكونات نفسه.....
٥	رابعا اللغة هي حافلة (cultural vehicle) ثقافية لتراث شعبها:.....
٦	خامسا، ليست اللغة فقط حافلة ثقافية، بل هي تعبير واضح عن هوية متكلميها.....
٧	سادسا، اللغة هي وسيلة الإنسان لفهم العالم من حوله، وفهم ذاته.....
٧	تاريخ اللغة ومراحل تطورها.....
٨	(١) من الغموض إلى الوضوح في الصوت واللفظ والمعنى:.....
٨	(٢) من العفوي إلى تطوير فنون اللغة وتعقيدها.....
٩	(٣) من المحلي إلى الشمولي.....
١٠	(٤) من الشفهي إلى المدون.....
١٠	(٥) من البساطة إلى التعقيد.....
١٠	(٦) من التعقيد والتنوع إلى التوحيد.....
١٢	(٧) من التعددية إلى العولمة اللغوية.....
١٣	تاريخ الكتابة.....
١٤	طرق الكتابة.....
١٥	الكتابة التصويرية logograph.....
١٥	كتابة الرموز الصوتية Syllabaries.....
١٥	الكتابة الإيحائية أو الإمائية Featural scripts.....
١٦	الكتابة الأبجدية.....
١٦	الكتابة في تاريخ الحضارات البشرية.....
١٦	تاريخ الكتابة في بلاد ما بين النهرين.....
١٦	تاريخ الكتابة في الصين.....
١٧	تاريخ الكتابة في مصر.....
١٧	تاريخ الكتابة في فينيقيا.....

١٨	إمتداد اللغة التاريخي والجغرافي والاجتماعي.....
١٨	الحدود السياسية واللغة:
١٩	الحدود الإجتماعية للغة
٢٢	أشكال اللغة:
٢٢	أولاً: اللغة العامية
٢٣	ثانياً: اللغة الفصحى.
٢٤	تعدد أشكال اللغة Diglossia.....
٢٨	تعدد الألسن والتنقل بينها multilingualism and code switching
٢٩	الفنوية في استعمال اللغة:
٣١	تبدل معنى العبارات واستعمالها.
٣٢	التوحيد اللغوي: ايجابياته وسلبياته
٣٣	أهداف التوحيد:
٣٤	محاولة إحياء بعض اللغات البائدة.....
٣٥	أدوات التوحيد:
٣٦	إرتباط اللغة العربية الفصحى بالدين الإسلامي.....
٣٨	خاتمة
٤٠	References List

ماهية اللغة وأشكالها

توطئة

غاية العلم شرح امور الحياة. واللغة البشرية هي من أهم ظواهر الحياة، اذ هي أساسية لفهمها، وشرحها وبالتالي لتطويرها نحو الاحسن. من هنا كان الدافع لدرسي موضوع بغية فهم أعمق لتاريخ تطورها وأوجه استعمالها وتوظيفها لخدمة مآرب سياسية معينة. أما الدافع الأول فهو شعفي بموضوع اللغات، تاريخ تطورها وانتشارها واستعمالها وتداخلها ببعضها بعض.

كأغلب اللبنانيين درست اللغات الأجنبية منذ طفولتي في المدرسة، وخبرتها على الراديو والتلفزيون وفي المطبوعات المختلفة. في الجامعة درست الفلسفة واللاهوت، وقد تضمننا مواد لها علاقة بفهم اللغة وكيفية استعمالها، مثل علم الألسن linguistics، وعلم تفسير المكتوب Hermeneutic أو exegesis، ثم تخصصت في علم التواصل وهو أساسي لفهم اهمية اللغات البشرية وكيفية استعمالها بهدف التواصل بين الناس، افرادا وحضارات. بعدها اخترت دراسة علم اجتماع اللغات sociolinguistic كجزء ثانوي خلال دراستي لبرنامج الدكتوراة في الادارة. يبقى أن شعفي في فهم موضوع اللغة دفعني منذ بداية سنوات دراستي الجامعية لقراءة العديد من الكتب والمقالات في هذا المجال، وكتابة عدة أبحاث في الجامعة حول هذا الموضوع.

يُحاول هذا البحث أن يُقدم لك عزيزي القارئ بعض المبادئ الاساسية في علم اللغات الاجتماعي sociolinguistics، مرتكزا اساسا على كتب معتمدة في أهم جامعات العالم في تعليم هذا العلم، وعلى كتب درست البيئة اللغوية في بعض الدول العربية، وعلى عدة مقالات في مضامير ومطبوعات مختلفة، وعلى استفتاء بعض الاشخاص ومقابلتهم بعضها الآخر. وقد اعتنيتُ بتقديم العديد من الأمثال المؤخوذة من المجتمع اللبناني قصد تبسيط الافكار المجردة وشرحها.

يُعالج هذا البحث مواضيع تحديد اللغة، تاريخ تطورها كلاما وكتابة، وانتشارها عبر التاريخ، الجغرافيا، والحضارات المختلفة، وتأقلمها مع بيئتها الاجتماعية، الاقتصادية، الجغرافية، السياسية والدينية وتأثيرها عليها. كما يُركز على ظاهرة التوحيد اللغوي، شارحا أهدافه، أدواته وأساليبه، إيجابياته وسلبياته. ليختم بعرض لظاهرة ارتباط اللغة العربية الفصحى بالدين الاسلامي.

مقدمة:

"في البدء كان الكلمة،

والكلمة كان لدى الله،

واكلمة هو الله.

كان في البدء لدى الله.

به كان كل شيء،

ويدونه ما كان شيء مما كان.

فيه كانت الحياة،

والحياة نورُ الناس،

والنور يشرق في الظلمات

ولم تدركه الظلمات. " إنجيل ربنا يسوع المسيح حسب يوحنا الرسول ١: ١-٥.

في البدء وقبل أن يخرج الانسان من ذاته، كانت الكلمة. يوم وعى الإنسان ذاته، خرج منها هائما في العالم، باحثا عن لقمة العيش وعن شريك يعيش معه. رويداً رويداً أسس العائلة التي بدت له من ضروريات الحياة. إن حاجة الانسان ورغبته باللقاء بالعالم واكتشافه، أوجبت عليه تطوير لغة تواصل، تكون وسيلة تعاطيه مع العالم من حوله، وبخاصة مع أناس مثله.

يشبه الانسان وحدة an atom لها شكلها وهويتها الخاصة. لكن لا وجود في الطبيعة لوحدة حديد، كبريت أو غيرها لوحدها، بل نجدها دوماً متحدة مع وحدات من أترابها لتشكل خلية معدن ما. كذلك لا وجود للإنسان من دون مجتمع. وعلى مثال الوحدة atom، يتمز الأفراد من الناس عن غيرهم بصلاية معدنهم، وبعلاقاتهم الاجتماعية مع أترابهم. أو لم يقل المثل: "قل لي من تُعاشر أقل لك من أنت"؟. إذا إن العلاقات التي يقيمها الانسان مع محيطه الاجتماعي والمادي والروحي، تحدّد هويته. من هنا أهمية اللغة، التي من دونها ما استطاع الانسان ان يتواصل مع محيطه هذا.

حدّد أرسطو الإنسان بأنه "حيوانٌ اجتماعي". فهو حيوانٌ لأنه حيٌّ، وإجتماعيٌ بطبيعته. فإذا ما انتفت عنه صفةُ الإجتماع، عاد حيواناً ليس إلا. ولكي يتمكن الانسان من أن يكون يقيم علاقات إجتماعية، عليه أولاً أن يقتبس لغة تمكنه من التواصل مع غيره من الناس. لا يستطيع الإنسان أن يعيش لوحده، فهو على خلاف سواه من الكائنات الحيّة، بحاجة ضرورية إلى أم تعتني به بعد ولادته ولسنين عدّة، قبل أن يُصبح، أقله من الناحية المادية مستقلاً. مرّةً أخرى تبدو اللغة ضرورة لوجود الإنسان، واستمراره ككائن إجتماعي. من ناحية روحية، تفهم المسيحية الإنسان بأنه كلمة. فهو مخلوق على صورة الله ومثاله، مخلوق بالكلمة الأزلية الذي هو المسيح يسوع. وبالتالي هو على مثال خالقه، ومعلمه وفاديه، كلمة. كلمة خرجت من الله-المحبّة لتكون حياة وخلص لأخيه الانسان. هكذا خلق الله آدم، الإنسان الأول، بحسب سفر التكوين، بالكلمة^١. والإنجيلي يوحنا يُشدد أن الحياة تصدر من الكلمة. وهذه الحياة هي نور الناس. ويرمز النور هنا إلى معرفة الله، مصدر سعادة الناس. هذا الكلمة تعطي نور. النور الذي أرسل إلى العالم، إلى "الظلمات" لكي تكون لنا الحياة بوفرة.

تحديد اللغة:

يتراوح تحديد أي مفهوم، مثل اللغة، بين ضدّان: (أ) تحديداً ضيق وغير وافي من جهة وب) تحديداً شامل ومبهم من جهة أخرى. وسأحاول بكل بساطة في تحديدي التالي لمفهوم اللغة، أن اتملص مما هو مبهم ولا اترمّت بما هو ضيق. مما لا شك فيه أن غنى مفهوم "اللغة" يجعل من تحديدها أمراً صعباً ومعرقلاً. إنما وكما قال طاغور "إنّ بداية كل علم تكون بتحديد مفاهيمه"، بغية إيجاد أرض مشتركة ينطلق منها الباحثون لمناقشة أفكارهم وخبراتهم المتباينة في مفهوم اللغة.

اللغة وسيلة تعبير:

اللغة هي كل ما من شأنه أن يُعبّر عن الإنسان. بل إنّ اللغة هي من أدق ما يُعبّر عن شخصية الإنسان، فهي تجسّد تاريخه وفكره ومعلوماته وثقافته وعواطفه. وبما أن اللغة هي تعبير دقيق عن الانسان يُمكننا أن نقول بأنّ لكل فرد لغته، ولهجته، ولكنته الخاصة، التي ترسم ملامح شخصيته. فنحن غالباً ما نميّز أسلوب إحدى الكتاب أو الخطباء، أو المعلقين لمجرد سماعهم أو قرأتهم. ويبقى أن لغة إنسان منا هي ديناميكية، بتطور مستمر حتى الموت.

^١ تكوين ١: ٢٦ "وقال الله، لنخلق الإنسان على صورتنا كمثالنا..."

اللغة هي وسيلة تواصل:

اللغة هي مجموعة رموز متشابكة وغالباً متواصلة، مشبعة بالمعاني، هدفها نقل معنى ما من شخص إلى آخر، عبر الجغرافيا والتاريخ.

لكي يعيش على الانسان أن يتواصل مع محيطه، وأترابه من البشر، مع تاريخه، حاضره ومستقبله، ولكي يستطيع أن يتواصل مع محيطه الجغرافي والتاريخي، هو بحاجة إلى لغةٍ ما. ولكي تؤدي اللغة مهمتها، أعني تواصل شخصان أو أكثر، يجب أن يكون لها نفس المدلول عند كل من يتكلمها. يمكن لهذه اللغة أن تكون شفوية، غنائية، موسيقية، صوتية، بصرية، إشارية، أو مكتوبة... لكن لكي تكون فعالة، يجب أولاً أن تعبر بصراحة ودقة عن شخصية وفكر المتكلم بها، وأن تصل إلى هدفها، أي الشخص الموجه إليه دون غموض أو تحريف، وأن يفهما سامعها بحسب قصد متكلمها.

بالطبع يختلف مدلول اللغة بين مجتمع وآخر، بين قريةٍ وأخرى مثلاً، وحتى بين أفراد العائلة الواحدة. لكن غالباً ما يكون هذا الاختلاف بسيطاً لدرجة أنه لا يعرقل التواصل بين الأفراد.

إذا وبإختصار اللغة هي أولاً وسيلة تعبير الانسان عن نفسه، وثانياً هي وسيلة تواصل بين الافراد والجماعات. ويقول Trudgill, (2000). Page 108 في هذا المجال:

بأن اللغة، إضافة إلى كونها وسيلة تبادل معلومات ما، هي أيضاً وسيلة مهمة لإقامة العلاقات بين الناس والمحافظة عليها. "Language, in addition to being a means of communicating information, is an important means of establishing and maintaining relationships with other people."

ثالثاً، اللغة هي تجسيد لشخصية مستخدمها، وأفكاره، وعواطفه، ومكونات نفسه.

يطرح السؤال نفسه هنا: "إلى أي حد يمكن لأي لغة أن تعبر عن مكنونان مستخدمها، وتجسد شخصيته بدقة وشفافية وطواعية؟". فغالباً ما يجد الإنسان منا نفسه عاجزاً عن التعبير عما يدور في عقله وقلبه. وتبدو اللغة التي توارثناها عن محيطنا الثقافي ركيكة الفكر، وفقيرة المعاني، وغامضة الرموز. فما هي اللغة، أو الشيء الذي يعبر بدقة وصدق وصراحة أكثر من غيره عن شخصية الإنسان؟ يقول بعض المفكرين بأن جسد الإنسان هو أوضح تعبير عن شخصه المعنوي. لكن نحن لا نختار جسدنا، وهو غالباً ما يخون احساسنا. يقول الاهوتي الكاثوليكي تيار دو شاردان، بأن الجسد المُمجد (أي الجسد النوراني الذي يلبسه الانسان ما بعد الموت)، يعبر عنه بأفضل وأدق سبيل. فالقديسين في سمانهم مثلاً، يُشعرون بجال أجسادهم الممجة، التي تعكس بوضوح مقدار قداستهم، وسعادتهم، وبإختصار شخصهم المخلص.

رابعاً اللغة هي حافلة (cultural vehicle) ثقافية لتراث شعبها:

تحوي كل لغة في عباراتها ومنطقها رؤية فريدة للعالم، تعكس خبرة شعبها. فلكل شعب لغة، ولكل لغة شعب. وإذا ما زال الشعب الذي يتكلم لغة ما، صارت تلك اللغة ميتة، لا حياة فيها تنقلها من جيل إلى جيل ومن شعب إلى آخر. تعبر اللغة عن شخصية شعبها الجماعية. مثلاً يُشير منطق وبلاغة اللغة الألمانية الحديثة إلى ما يتحلى به الشعب الألماني من منطق وتنظيم. كما تدل اللغة الطليانية بنغمها وتناسقها إلى ما يكتنزه شعبها من حس فني وموسيقي مرهف. وبما أن لكل شعب هويته الجماعية الفريدة، كذلك لكل لغة شخصيتها، التي تستمدّها من شعبها. فهناك العديد من العناصر المتشابهة بين لغات شعوب المناطق الجغرافية المتشابهة، والخبرات التاريخية المماثلة. وهناك علاقة وثيقة بين تاريخ أي شعب، وبيئته الجغرافية والاجتماعية وبين لغته. مثلاً تكاثر العبارات التي تصف

الثلج عند أهل الأسكيمو، وتصل إلى نحو خمسين عبارة مختلفة تشير إلى أنواع الثلج العديدة في تلك المنطقة. علماً أن الفرق بين عبارة وأخرى من أسماء الثلج عند شعب الاسكيمو قد يكون مميتاً. لذا يجب على المتكلم أن يعي ويتنبه لخيار العبارة التي يصف بها الثلج لأبناء شعبه، وإلا أرسل رسالة مشوشة، تحث سامعها على أخذ قرارات غير صائبة ومؤذية.

وتكثر عند العرب وأهل البدو مثلاً العبارات التي تصف ادوات الغزو مثل السيف (المُهَنْد، الابيض، الحُسام ...) والحصان والجمال. مما يشير إلى أهمية مثل هذه الادوات في المجتمع العربي القديم الذي اعتمد على الغزو والحرب كسبب أساسي في كسب معيشته. كما وتزخر اللغة العربية بالصور والتشابه المستخرجة من بيئة شعبها الجغرافية مثل "جمال القمر"، و"سكون الصحراء". وهاك مثل آخر يشرح كيف تعبر اللغة عن ثقافة شعبها. درج العرب منذ القديم بأن يدلوا على زوجة الرجل بعبارة "عقيلته"، كما في العبارة المألوفة: "السيد فلان وعقيلته". وكلمة "عقيلة" في اللغة العربية تعني أصلاً الناقة، أي أنثى الجمل. وقد سُميت بـ"عقيلة" لأنها غالباً تعقل (أي تربط إلى) ذكر الجمل في قوافل الصحراء. فتكون تابعة للجمل في سفره. تقوم إذا ما وقف، وتركع عندما يركع، وتلحق به إذا ما مشى. والمرأة عند العرب تابعة لرجلها، كالعقيلة للجمل. تمشي خلفه، وتأمّر بكلامه، وتحتمي به.

ومن الثقافة الكنعانية اللبنانية، اخترت عبارة "بعل" بمعنى زوج المرأة. وقد درجت النصوص الليتورجية المارونية مثلاً على استخدام هذه العبارة، إذا تسمى رجل المرأة ببعلها. والبعل هو إله المطر عند الكنعانيين (ومنهم الفينيقيين). ويُقال أرض بعل، بمعنى أنها تعتمد على الإله بعل، أي مطر السماء لترتوي وتخصب دون سواه. والرجل في مفهوم الثقافة اللبنانية الفينيقية والمارونية المسيحية هو بعل زوجته، بمعنى أنه سيدها، ليس لها رجل سواه، وهي تعتمد عليه حصرياً ليخصبها ويقودها إلى ملء الحياة والسعادة.

خامساً، ليست اللغة فقط حافلة ثقافية، بل هي تعبير واضح عن هوية متكلميها.

فحين يتكلم الإنسان يتحدث أولاً عن ذاته. بمعنى آخر كلامه، لهجته، انتقائه لمفرداته، ولصور الكلام والتشابه، والمنطق وغيرها من مقومات الكلام، كلها تعبر بطريقة لا غش فيها عن هوية المتكلم.

تكثر العبارات الدالة على مشاغل القوم في لغتهم، فتتميز لغة البحارة مثلاً بعبارات وصور تحكي عن بيئتهم، وكذلك حدثت عن لغات اصحاب باقي الحرف. فيتفق مثلاً الأطباء على معاني كلمات خاصة بكارهم، ويستسغون استعمال تشابهه منبثقة عن طبيعة عملها ومعاناتهم اليومية. على سبيل المثال، وبعد مراقبة بعض المتكلمين اللبنانيين، لاحظتُ فرقاً كبيراً في انتقاء المفردات بين الجيل الجديد في جبل لبنان (يتراوح عمر هذا الجيل بين الـ ١٨ والـ ٢٥)، والجيل القديم (ويتراوح عمره بين الـ ٤٠ والـ ٦٠). ففي الدراسة استعمل شخص ذكر من الجيل الجديد عبارة "قطف" (نقطف) للبقدونس، والبندورة والزيتون على السواء. بينما عادةً ما يستعمل أبناء الجيل القديم في لبنان عبارة "جَمّ البقدونس"، وقطف الخوخ والمشمش، وحواش الزعتر والزيتون أو لمه أو فرطه، وحصاد القمح، وحش اللوبياء والحمص اليابس، وهلم جر. هذه الملاحظة تشير بأوضح بيان كيف تتغير لغة الانسان بتغير نمط حياته. فطبيعي أن تكون لغة المزارع الزراعية غنية، مما يشير إلى أهمية الأعمال الزراعية في حياته، بينما تفقر لغته في ميدان الكمبيوتر إلى العديد من المفردات التي يراها إختصاصيو مجال الكمبيوتر غاية في الأهمية وضرورية لعملهم.

إن لغة أي متكلم، إنتقائه لمفرداته، لهجته، وإسلوبه تعبر عنه. فكلامه يفصح عن ثقافته، حالته النفسية، خبرته الحياتية، وإنتمائه

الاجتماعي. وكما يشرح

Trudgill, P. (2000). Page 2 "Things will be learnt not so much from what the other person says as from how it is said, for whenever we speak we cannot avoid giving our listeners clues about our origins

and the sort of person we are. Our accent and our speech generally show where we come from, and what sort of background we have.”

واستنادا إلى المرجع نفسه، ص. ١١٤، نرى أن سكان أوروبا الشمالية، بأغلبهم يعتقدون أن الأمريكيين يميلون إلى الضجة والسيطرة على غيرهم. وذلك بسبب إختلاف مفهوم أهل أوروبا الشمالية عن مفهوم الأمريكيين بشأن ارتفاع صوت المتكلم وكمية كلامه. فالأمريكان بطبيعتهم يتكلمون بصوت عالٍ، ينظرون إلى مَنْ يُكلمون في وجهه، ويُحاولون السيطرة على مجرى الحديث، بينما يجد سكان أوروبا الشمالية، والشرق الأقصى مثل هذا الأسلوب في التواصل فوضوي وغير لائق. وحيث تكثر الفروقات الثقافية، تتضاعف نسبة سوء الفهم بين المتخاطبين.

سادسا، اللغة هي وسيلة الإنسان لفهم العالم من حوله، وفهم ذاته.

سيوضح لك التمرين التالي كيف تشكل لغة الفرد وسيلته لفهم نفسه وعالمه: أغمض عينك للحظة، وحاول أن تفكر في أمر ما. هل تستطيع التفكير بدون الركون إلى لغة ما؟ لا أعتقد ذلك. فدماغ الإنسان يشتغل على أساس اللغة، يستعين بها لكنه العالم، تحليله وتفسيره.

تؤمن اللغة المنطق، الصور، والعبارات اللازمة للفرد لكي يعي نفسه وبيئته. من هنا غالباً ما يختلف الناس المنتمين إلى لغتين مختلفتين بالرأي، إذ أن لديهم وجهتي نظر مختلفتين بسبب إختلاف لغتهم. مثلا للبحر في تراث اللغة العبرية دلالة سلبية، فهو يُمثلُ الموت والشر و الشيطان. لأن الشعب العبري اليهودي أصلا شعبٌ بدوي، في ترحالٍ مستمر وراء مراعي ماشيته. بينما يرى الشعب الفينيقي في البحر طريق تجاري ومصدر رزق وغنى. ومن الطبيعي أن يجد مَنْ كان يجهلُ الثقافة العبرية من الفينيقيين صعوبة في فهم مفهوم البحر السلبي في اللغة والثقافة العبرية، وربما يكون ذلك سبب خلاف. ويعرف مَنْ سافر وعاش في حضارات غريبة أن الخلاف على القيم الأخلاقية وأولويتها في الحياة بين شعبٍ وآخر يمكن أن يكون مصدر نزاع وخلاف. ويعرف مَنْ تعلم لغة جديدة كيف أثرت اللغة الجديدة على رؤيته للعالم من حوله، واقحمته على تغيير بعضا من قيمه. أخيرا، صدق المثل القائل بأن "كل لغة بإنسان". بمعنى آخر كل لغة يتقنها الفرد تفتح أمامه نافذة جديدة يرى العالم منها، وتغني شخصيته بوجهة نظرة جديدة ومغايرة للعالم. فالعالم من حولنا موجودٌ بحد ذاته، إنما هي لغتنا التي تساعدنا على فهمه، درسه والتفاعل معه. اللغة هي من أساس تكوين المعلومات، حفظها ومشاركتها، وبالتالي هي أساس العلم.

تاريخ اللغة ومراحل تطورها

لكل من الحيوانات الاجتماعية، أعني التي تعيش في جماعات كالنحل والنمل والطيور والدلافين والقرود لغته الخاصة. لكن لغتنا البشرية هي أكثر من معجم غرائزي، بل هي وليدة تمرّن، يكتسبها الطفل من عائلته مع الزمن. يتميّز الإنسان دون سواه من الحيوانات بأن لغته غير غرائزية، بل وليدة العقل. فجهاز الإنسان اللفظي مرتبط مباشرة بالعقل، الذي يعمل على تنشيطه وتطويره، وليس جهازا غرائزيا كما عند باقي الحيوانات. وحده العقل البشري قادر على تطوير اللغات البشرية المعقدة كما نعرفها اليوم.

تشرح مقالة "تاريخ اللغة" (على موقع historyworld.net)، بأنه "من الصعب جدا معرفة في أية مرحلة من تاريخ الإنسان تطورت قدراته اللغوية. لكن لا ريب أن تطوير الانسان لقدراته اللغوية كان رحلة طويلة جدا. الأرجح أن أسلافنا تكلموا منذ حوالي المليون سنة. وطبيعي أن لسانهم كان أثقل وأبطأ، ومفرداتهم أفقر وأبسط، وبالأخص قواعد لغاتهم كانت اقل تعقيدا مما هي عليه اليوم."

تعكس اللغات البشرية بكل بساطة تاريخ الانسان مبتكرها. هذا الانسان الذي ما فتى يتحوّل عبر التاريخ من وعيه لذاته، إلى وعيه للعائلة ودورها، إلى تكوينه للقبيلة البدوية، ثم القرية المستقرّة، ثم المدن والممالك المحصّنة. ومنها انطلق إلى احتلال مجتمعات اخرى وإنشاء امبراطوريات كبرى، وتطوير مجتمعه الذي ما برح يزدادُ تعقيدا بقدر ما يتراكمُ التاريخُ الحافلُ بالنزاعات على كتفيه. منذُ القديم عرّف الفلاسفة بالإنسان أنه: "الكائن الحي المتكلم". إنها المقدرّة على التواصل بين البشر، وبين الانسان وبيئته التي تميّزه على سائر الكائنات الحيّة. هي اللغة، كانت في أساس تطوّر المجتمعات البشرية، في أساس حفظ ذاكرتها ودرسها، في أساس فهم الانسان لمحيطه ولأخيه الانسان. لكن هذه اللغة التي نعرفها اليوم بأشكال متنوعة ومتعددة ومعقّدة، بدأت كما كل شيء بخطوات صغيرة ومتدرّدة، تشبه خطوات طفل صغير يُحاول تعلّم المشي، وبه رغبة لإكتشاف العالم من حوله. وكما يبدأ أي طفل بالكلام، هكذا بدأ تاريخ الإنسان ولغته. ويُمكننا أن نميز بين المراحل التالية في تاريخ اللغة البشرية:

١. من الغموض إلى الوضوح في الصوت، اللفظ والمعنى.

٢. من العفوي إلى تطوير فنون اللغة، وتنظيم قواعدها.

٣. من المحلي إلى الشمولي.

٤. من الشفهي إلى المكتوب.

٥. من البساطة إلى التعقيد.

٦. من التعقيد والتنويع إلى التوحيد.

٧. من التعددية إلى العولمة اللغوية.

(١) من الغموض إلى الوضوح في الصوت واللفظ والمعنى:

في البدء كانت لغة الإنسان مجرد أصوات غامضة، ينقصها الوضوح والمعنى. فكما يتكسّب طفلٌ رضيعٌ فن إصدار الاصوات بغية لفت نظر أمه عندما يكون جائعا، بارداً او مبتلا. كذلك ابتدأ الإنسان القديم تعلّم صقل فن اصدار الاصوات، توضيحها بحيث يستطيع اصدار نفس الصوت أينما شاء، وتحميلها معنىً مستقرا وديناميكيا في آن. ويقول علماء تاريخ اللغة أن الانسان تكلم منذُ حوالي المليون سنة. ولغتنا اليوم على جمالها، وتنسيقها وتعقيدها هي ثمرة مليون سنة من التمرّس وتطوير جهاز الإنسان الصوتي ونظامه اللغوي.

(٢) من العفوي إلى تطوير فنون اللغة وتعقيدها.

كمن يتعلّم عزف آلة موسيقية، كذلك فن إتقان اللغة. يبدأ عفواً وبسيطاً، فقيراً بالاصوات والمعاني، ويزدادُ تعقيداً على مرّ الأيام. ونميّز هنا بين نوعين أساسيين من الكلمات: (أ) كلمة تدلّ على شيء، حالة، مكان، زمان أو شخص... (ب) فعل يدلّ على حركة أو عمل. كانت مفردات الانسان البدائي بدائية. ومن قراءتنا للكاتب المقدس الذي كتب على مراحل منذُ حوالي ثلاثة آلاف عام، نرى أن عبارة واحدة، كـ"إلهيم" مثلا، يمكن أن تعني: (أ) الله، (ب) جماعة الآلهة، (ج) قاضي، (د) ملاك. إذا تطوّرت اللغات من مفردات قليلة وفقيرة المعنى وغامضة، بسبب دلالتها على أكثر من معنى متضارب في آن، إلى غنى في المفردات ودقة في معانيها. فكلمة طريق في الإنكليزية المعاصرة مثلا لها أكثر من مرادف:

a) road, b) street, c) alley, d) freeway, e) highway, f) expressway, g) way, h) circle, i) dirt road, j)

paved road, k) boulevard, l) avenue, m) interstate, n) toll road, o) route p) trail q) path r) passage s) lane

t) byway v) course w) throughway x) line y) carriageway z) roadway, a.1) autoroute, a.2) parkway, a.3) turnpike, a.4) run, a.5) circuit, a.6) cycle, a.7) tour, a.8) beat, a. 9) sideway, b.1) alleyway, b.2) archway, b.3) areaway, b.4) beltway, b.5) bikeway, b.6) breezeway, b.7) cableway, b.8) railway, b.9) causeway, c.1) waterway, c.2) driveway, c.3) flyway, c.4) footway, c.5) gangway, c.6) hatchway, c.7) superhighway, c.8) jetway, c.9) motorway, d.1) passageway, d.2) raceway, d.3) roadway, d.4) rollway, d.5) runway, d.6) seaway, d.7) shipway, d.8) skyway, d.9) slipway, e.1) speedway, e.2) sluiceway, e.3) spillway, e.4) stairway, e.5) taxiway, e.6) thruway, e.7) tideway, e.8) tramway, e.9) walkway, f.1) sidewalk, f.2) waterway, f.3) access road, f.4) byroad, f.5) crossroad, f.6) service road, f.7) frontage road, f.8) highroad, f.9) underground railroad etc. (more than 77 terms)

وغيرها كثير. فاللغات القديمة كانت تدل على كل هذه العبارات بعبارة واحدة هي "طريق". ويمكنك أيها القارئ أن تعي اليون الشاسع بين لغة بدائية ولغة حديثة. فلكل من هذه العبارات معناها الخاص يُميّزها عن مرادفاتها. فالإنتقال من عبارة تعني أكثر من معنى إلى حوالي الثمانين مفردة للدلالة على نفس المعنى، هو غنيّ وتعقيد لغوي. لكن هذا الانتقال استغرق آلاف السنين، والخبرات البشرية، على صعيد القواعد، يكفي أن نشير إلى أن اللغات الأبجدية، أعني التي تخلو من حروف العلة، كاللغات السامية السريانية، والكلدانية، والعبرية، والأوغاريتية والفينيقية والعربية وغيرها، كانت تُكتب قديماً، أي منذ حوالي الألفي سنة من دون أي أحرف علة أو حركات. فعبارة رب مثلاً، يُمكن أن تُقرأ: أ) رَبُّ صدفةً افضل من معاد، ب) رب البنذورة، ج) رَبّ السماء، أو د) رَبّ ابنك على الصلاح ... رويدا فقه الانسان أهمية تطوير اللغة للحفاظ على وحدة (consistency) معناها ولفظها بين المتكلمين على اختلاف انتمائتهم. فإن يقرأ كُلُّ على ليلاه، ضاعت الطاسة وفقد المعنى وخط الحابل بالنابل، وأدت بنا اللغة إلى البلبلة والتشويش، بدل الفهم المتبادل.

٣) من المحلي إلى الشمولي.

كُلُّ لغة إنما تتكون محلياً ثم تنتشر عبر التاريخ والجغرافيا وتتطور. وكما يقول الفيلسوف الألماني هيغل "لا شيء يُولد دون تاريخ". فالإنسان البدائي سَمِعَ أصوات الطبيعة من حوله. حفيف اوراق الأشجار، هدير الموج، خرير الانهار، زقزقة العصافير، ونهيق الحمير ... ولا بُدَّ أنها كانت تفتنه، والأرجح أنه تعلم تقليدها للدلالة عليها وموافقتها. فاللغة وإن كانت متطورة جداً عند الإنسان، فهي موجودة بين الحيوانات إما صوتية أو كحركة بدنية، ولكن بطريقة غرائزية غير قابلة للتطوير. إذا لم يبدأ الإنسان من العدم، بل انطلق من بيئته الجغرافية. من بيئته الديموغرافية الضيقة، اكانت العائلة، ام القبيلة، أم أية جماعة بشرية بدائية إلى الالتقاء بجماعات أخرى، رُبما اختلفت عنه مظهرأ، وعوائدأ ولغة، فنقل إليها لغته وتعلم منها.

لنتناول مثلاً من بيئتنا اللبنانية، حيث غالباً ما ينزح اهل الجبل من ضياعهم الريفية، إلى المُدن طلباً للعلم والعمل. وهم ينتقلون بذلك من بيئة محلية إلى بيئة أكثر تمدناً وشمولية. فالمُدن في كل البلدان تجذبُ أهل الريف وغيرهم من كلِّ حذبٍ وصوب، فيلتقي فيها أناسٌ من ألسنة مختلفة، وقيم متباينة، ومذاهب متفاوتة. وتعملُ المُدن على صهر قاتبيها في بوتقتها. وغالباً ما يكون عنصر اكتساب لغة المدينة بالنسبة لفاصديها من الغرباء، مدخلهم للإنخراط الأعمق في حياتها الإجتماعية. فالإنسان بطبيعته يميلُ إلى الانخراط في بيئته الاجتماعية، طلباً للدعم والحماية. وامتلاك اللغة المحلية هو سبيل للإنخراط في المجتمع المحلي.

منذ فجر الحضارات البشرية، بدأت المجتمعات المختلفة تنظم حياتها الإجتماعية، العسكرية والسياسية في مُدن. وغالباً ما تكوَّبت قُرى زراعية حول المُدن المحصَّنة، طلباً للعيش والحماية. وبموازاة سير تاريخ المجتمعات البشرية من المحلي إلى الشمولي، بخاصة مع تطور المُدن، ثم الممالك والامبراطوريات، تطورت لغات هذه المجتمعات ايضاً من المحلي إلى الشمولي. وكلنا له خبرات عديدة نذكره بانتقاله من لغته المحلية، التي تعلمها من أمّه في صغره، وفيه البيت الوالدي، إلى لغته أكثر شمولية، كلغة الشارع والحي، ولغة المدينة.

٤) من الشفهي إلى المدون.

بعد أن وعى الانسان أهمية اللغة للتعبير عن ذاته والتواصل مع غيره، فهم أهمية تدوين معلوماته. وبدأ مشوار تطوير كتابة لغاته الطويل. وقد كانت رسومات الانسان البدائي على حيطان الكهوف التي سكنها منذ حوالي ٣١ الف سنة من أولى محاولات البشر، افرادا وجماعات لتدوين لغتهم. لا جرم أن الكتابة هي شكلٌ منطور من أشكال اللغة. لها تاريخها ومراحل تطورها. وسنعرض لهذا الموضوع لاحقاً، تحت عنوان: تاريخ الكتابة.

٥) من البساطة إلى التعقيد.

إن تراكم التاريخ يعني تراكم الغنى الحضاري والنزاعات بين فئات المجتمع الواحد. فتاريخ الحياة على الأرض بدأ منذ حوالي ثلاثة مليارات سنة مثلاً، بدأت الحياة على الأرض بشكل بكتريا في المحيطات. وبعد مئات ملايين السنين، أي حوالي ٦٠٠ مليون سنة، تكوَّنت أول حياة صدفية بحرية على كوكب الأرض. وهكذا فإن تاريخ الحياة على الأرض بدأ بسيطاً من المياه، حيث وجدت البكتريا، ثم العضويات الأكثر تعقيداً، ثم الحيوانات على أنواعها. وتاريخ الإنسان على الأرض الذي يقرب ٢,٥ مليون سنة، هو تاريخ تطور مستمر، ومسيرة من البسيط إلى الأكثر تعقيداً على المستوى الفكري، الإجتماعي، الحضاري والتكنولوجي ...

إن تمازج الحضارات البشرية عبر التاريخ من خلال تواصلها لداوع معيشية، كان عاملاً مهماً لتمازج لغاتها. هذا التمازج فتح الباب لاستعارات لغوية على صعيد المفردات، التشابيه والصور، والفنون، والقواعد. وهو اليوم أسرع انتشاراً مما كان عليه في الماضي، بفضل تطور وسائل التواصل بين المجتمعات البشرية، كالتباعة، والتلفون، والراديو والتلفزيون والانترنت وغيرها. هذا التمازج اللغوي أجبر الانسان أن يخرج من بيئته اللغوية الضيقة مدفوعاً للانخراط بالعولمة من حوله. وبالتالي كان عليه أن يتعلم مفردات وتعابير ولغات شعوب جديدة، وهكذا يُكمل اليوم مشواره اللغوي من البسيط إلى الأكثر صعوبة وتعقيداً.

٦) من التعقيد والتنوع إلى التوحيد

يُمكن للتوحيد اللغوي أن يأخذ عدّة مناحي. كتوحيد لهجات محلية في لغة فصحي رسمية، مثال اللغة العربية الفصحى التي تشكل لغة موحدة رسمية لعدّة مجتمعات. أو تبني اللغة الإنكليزية كلغة عالمية World Lingua Franca في بعض مجتمعات الشرق الأوسط وأفريقيا والهند والصين وغيرها. وفي كلتا الحالتين المعروضتين اللغة الموحدة هي لغة أجنبية، يتبناها الشعب بسبب الضغوطات الثقافية والدينية والاقتصادية كجواز سفر يؤهله دخول عالم أكبر. فلبنان مثلاً، تكلم عدّة لغات منذ فجر تاريخه حوالي خمسة آلاف سنة خلت، حسب الجدول التالي:

جدول رقم ١: اللغات المتداولة في لبنان عبر التاريخ.

التاريخ	الحدث	اللغات المتداولة
٥٠٠٠ - ١٩٠٠ ق م	شعوب كنعانية فينيقية استقرت على سواحل لبنان، فلسطين وسوريا.	الكنعانية والفينيقية، وهي لغات سامية.
١٩٠٠ - ١٤٠٠ ق م	أهم مدن بلاد ما بين النهرين وسوريا توحدت وشكلت امبراطوريات احتلت الهلال الخصيب (الأكاديين، الآشوريين، والأموريين)	الكنعانية، الفينيقية، الأكادية، الآشورية والآرامية (وهي لغة موحدة للغات الهلال الخصيب).
١٤٠٠ - ١٢٠٠ ق م	المصريون الفراعنة يحتلون لبنان، ويدخلون على الخط في الصراع العراقي السوري للسيطرة على الهلال الخصيب.	الكنعانية، الفينيقية، الأكادية، الآشورية والآرامية، القبطية المصرية.
١١٨٥ ق م	المدن الفينيقية الساحلية تسقط بيد شعوب البحر ويتقهقر الحثيون السوريون نحو الداخل.	الكنعانية، الفينيقية، الأكادية، الآشورية والآرامية، القبطية المصرية، لغة شعوب البحر.
٨٧٥-٦٠٨ ق م	الآشوريون العراقيون يسيطرون على الهلال الخصيب بما فيه لبنان.	الكنعانية، الفينيقية، الآشورية والآرامية، القبطية المصرية، لغة شعوب البحر.
٦١٠-٥٤٦ ق م	البابليون العراقيون يسيطرون على الهلال الخصيب بما فيه لبنان.	الكنعانية، الفينيقية، البابلية، الآشورية والآرامية، القبطية.
٥٢٩-٤٨٥ ق م	الفرس الإيرانيون يسيطرون على الهلال الخصيب.	الكنعانية، الفينيقية، البابلية، الآشورية والآرامية، القبطية، والفارسية.
٣٢٣-٦٤ ق م	اتحاد الممالك اليونانية يحتل الهلال الخصيب وصولا إلى الهند.	اللغات الآرامية المحلية، الفينيقية والهلينية اليونانية.
٦٤ ق م - ٣٩٥ م	الرومان يحتلون الهلال الخصيب، مصر وأسيا الصغرى وأوروبا بأغلبها Pax Romana Era.	الآرامية، اليونانية، اللاتينية.
٣٩٥-٦٦٧ م	الغساسنة الايرانيون يتزعون السيطرة على الهلال الخصيب من الرومان، بخاصة المناطق الداخلية: العراق وسوريا.	الآرامية، اليونانية، اللاتينية، الفارسية.
٦٥٠ م	العرب السنة يحتلون سوريا ويزحفون نحو العراق.	الآرامية، اليونانية، الفارسية والعربية.
٦٦٧ م	جيش المردة البيزنطي، ينسحب من جبل لبنان حيث كانت ومنذ ٣٢٣ ق م اللغة اليونانية لغة التجارة والعلم والدين بعد الآرامية السريانية المحلية.	الآرامية، اليونانية، الفارسية والعربية.
٦٧٠ - ١٥١٥ م	تعاقبت الممالك الاسلامية السنية العربية على حكم الهلال الخصيب، وكانت لغتها الأساسية العربية. يُتسنى من هذه المرحلة سنوات الحكم الصليبي.	الآرامية، اليونانية، الفارسية والعربية، بالإضافة إلى الإيطالية والفرنسية والانكليزية...
١٠٩٥ -	الصليبيون وهم اتحاد جيوش فرنسية، ايطالية، ألمانية، انكليزية	الآرامية، اليونانية، الفارسية، العربية، بالإضافة

١٢٩١ م	واسبانية وبرتغالية ونمساوية وبيزنطية... يسيطرون على لبنان.	إلى الإيطالية والفرنسية والانكليزية...
١٥١٥- ١٩١٦ م	حكم الأتراك العثمانيون السنة.	الأرامية، العربية، التركية، الإيطالية الفرنسية والانكليزية...
١٩١٦- ١٩٤٨	تعاقب على لبنان الانتداب الفرنسي، والاحتلال الانكليزي والالمانى.	العربية، الفرنسية والانكليزية، الأرمنية.

بالطبع لا نستطيع أن نذكر كل اللغات التي استعملتها الشعوب اللبنانية عبر العصور، إنما اقتصر الجدول السابق على ذكر الاساسي منها.

جدير بالإيضاح هنا أن اللغات المحكية في لبنان عبر العصور لم تنقرض أو تضمحل، بل تمازجت مع لغات الفاتحين وتحولت إلى لغة جديدة ديناميكية. فاللغة اللبنانية المعاصرة هي مزيج من كل هذه اللغات التي سيطرت شعوبها يوماً على لبنان منذ فجر تاريخه. فاللغة لا تموت إنما تتحول لتستمر تحت شكل جديد، مكتنزةً غنى لغوي وثقافي من اللغة المتمازجة بها. وسنعرض لاحقاً تحت عنوان: "التوحيد اللغوي" بالتفصيل لهذه الظاهرة اللغوية.

(٧) من التعددية إلى العولمة اللغوية.

وربما اعتقد بعض الناس أن ظاهرة العولمة إنما هي حديثة العهد. لا، بل تاريخ العولمة بدأ مع تاريخ أول مدينة بشرية في الهلال الخصيب قررت أن تسيطر على جيرانها من القرى والمدن، وتأسست بذلك أو أمبراطورية في بلاد ما بين النهرين. إن عولمة اللغة والاقتصاد والسياسة هي أمرٌ طبيعي، بدأ حوالي سنة ٢٣٥٠ قبل ميلاد يسوع المسيح، في بلاد ما بين النهرين يوم انطلق الأكاديون من مدينتهم أكاد ليحتلوا بضع مدن مجاورة، فأنشؤوا بذلك أول امبراطورية ثقافية وسياسية. وعلى خطى الأكاديين حاولت الشعوب التي توالى في السيطرة على الهلال الخصيب عبر التاريخ فرض ثقافتها وتوحيد شعوب المنطقة تحت لوائها الجديد. وفي عملية العولمة هذه غالباً ما استعملت اللغة والدين كعاملين أساسيين للعولمة. لذا نرى اللغة الأرامية تسيطر على منطقة الهلال الخصيب كعامل توحيد ثقافي، تجاري، سياسي وديني من ٣٠٠٠ ق م - ٧٠٠ ق م. كما سوق اليونانيون للغة وثقافتهم الهلينية (٣٢٣ ق م - ٦٧٠ م)، وكذلك فعل الرومان، والعرب (٦٧٠ حتى اليوم)، والصليبيون (١٠٩٥-١٢٩١)، والأتراك (١٥١٥-١٩١٦).

هناك حالياً حوالي ستة آلاف لغة حية حول العالم. ثلثها في أفريقيا. وهي في تناقص مستمر وبسرعة مخيفة من ناحية عددها ومن ناحية انتشارها الجغرافي والديموغرافي (Cf. Trudgill 2000, p.191). فخلال الـ ٤٠٠ سنة الغابرة إندثر حوالي ٣٠٠ لغة كلياً. من بين الـ ٦٠٠٠ لغة الحية اليوم، فقط ١٧ لغة لديها أكثر من ١٠٠ ألف متكلم. في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، مات ما يفوق الخمسين لغة منذ وصول الأوروبيون أي سنة ١٤٩٢ م. (Cf. Trudgill 2000, p.192). بالطبع يتراوح عدد اللغات الحية اليوم بين كتابٍ وآخر بسبب اختلاف اللغويين في تحديدهم لمفهوم اللغة. فربما قال قائل بأن هناك لغة عربية واحدة مثلاً، أو اعتقد غيره بأن هناك لغة مصرية، لبنانية، سورية، مغربية، عراقية وهلمنا جرى. وسنتناول موضوع الحدود اللغوية لاحقاً، تحت عنوان: إمتداد اللغة الديموغراف، الجغرافي والاجتماعي.

بإختصار واقع انقراض اللغات المستمر يفرض نفسه اليوم، شاء اللسانيون أم ابوا. والسبب في عولمة اللغات هو أن متكلميها يتخلون عنها وعن اعباء تعلمها بسبب عدم فائدتها، ويستبدلونها بلغة أهم بالنسبة إليهم. إنها طبيعة السوق التي تفرض على ابن الهلال الخصيب اليوم تعلم اللغة الانكليزية مثلاً، كما سبق وتعلم الهلينية، واللاتينية، والعربية والتركية. لقد فرضت اللغة الانكليزية نفسها خلال

النصف الأخير من القرن العشرين على أنها من أهم اللغات العالمية. خاصة في مجال الأعمال والتجارة. ففي لبنان مثلاً، كما في باقي الدول النامية في آسيا، أفريقيا، أوروبا وأمريكا اللاتينية، يسعى الناس، بخاصة الأغنياء منهم إلى تعليم اولادهم في مدارس خاصة، حيث الفرنسية أو الانكليزية هي لغة التعليم الأساسية بنسبة ٥٧%. وقد تصل هذه النسبة إلى ١٠٠% في بعض المدارس الخاصة، المتوفرة فقط للأغنياء في الدول النامية. وما تعليم اللغة الانكليزية في الأرجنتين، سنغفورة، الصين، الهند، السعودية ولبنان على سبيل المثال لا الحصر، إلا قناعة من أهل تلك البلاد بتفوق الإنكليزية على اللغات المحلية، وبأن تعلمها سيفيد أبناءهم أكثر بكثير من تعلم لغتهم المحلية. في نهاية الكلام عن تاريخ اللغة، لا بُد لي، وقبل الكلام عن تاريخ الكتابة، الإشارة الى إستمرارية التطور في أية لغة. فهي بطبيعته كائن حي، تتغير بحسب تغيرات شعبها. وما يلي مقتطف من دراسة نشرها اللغوي المشهور (Trudgill (2000)، تشير إلى إحدى سبل تطوير اللغة:

شهدت الفترة الممتدة بين ١٨٦٠ ولغاية ٢٠٠٠ (تاريخ نشر الكتاب) تغييراً كبيراً في مفهوم علاقات القرابة في المجتمع الروسي. ويعود ذلك إلى التغيرات الكبيرة المتتالية التي طبعته ذلك المجتمع في تلك الفترة. وكان لا بُد للغة من أن تعكس في مفرداتها ومنطقها هذا التغيير الاجتماعي. وسنذكر هنا على سبيل المثال، لا الحصر، غياب بعض المفردات، وتغيير معنى آخر. فعبارة "أمرأة الأخ" (shrin) التي كانت كلمة واحدة، انتفت لتحل مكانها عبارة brat zheny أي امرأة أخي (عبارة مركبة). وعبارة "أخ الزوجة" (كلمة واحدة nevestka) انتفت لتصبح عبارة مركبة (أخ الزوجة zhena brata). وفي ذلك دلالة على تراجع أهمية الدور الاجتماعي الذي كان يلعبه أخ الزوجة، وأمرأة الأخ في المجتمع الروسي لمنه سنة خلت.

Trudgill (2000). Page 17 "During the period from 1860 to the present day the structure of the Russian kinship system has undergone a very radical change as a result of several important events: the emancipation of serfs in 1861, the First World War, the 1917 communist revolution, the collectivization of agriculture, and the Second World War. There has been a marked social as well as political revolution, and this has been accompanied by a corresponding change in the language. For example, in the middle of the nineteenth century, 'wife's brother' was 'shrin', whereas now it is simply 'brat zheny', brother of wife. Similarly, 'brother's wife', formerly nevestka, is now 'zhena brata', wife of brother. In other words, distinctions that were formerly lexicalized, because they were important, are now made by means of phrases."

وهناك أشكالاً أخرى كثيرة مثل إدراج مفردات وتعابير جديدة مستعارة من لغات "متفوقة"، وإسقاط عبارات قديمة على أنها لم تعد "دارجة". ويمكن للتغيير اللغوي أن يحصل بحجة تطوير اللغة، أو توحيد لهجاتها المحلية، أو تنقيتها مما قد دخل عليها بسبب سيطرة سياسية أو اقتصادية غريبة لم تعد مرغوبة، أو غير ذلك من الأسباب. يبقى أن التغيير المستمر هو من طبيعة اللغة، بغض النظر إن وعى أهل لغة ما طبيعتها الديناميكية أم لا.

تاريخ الكتابة

الكتابة عامة هي حفظ الكلام والفكر البشري عبر تدوينه بشكل رموز، بغية تسهيل نقله من مكان إلى آخر ومن جيل إلى آخر. ولكل كتابة هدف واسلوب معين، لذا إته من الأهمية بمكان، وقبل أن نغوص في موضوع تاريخ الكتابة، أن نميز بين أصناف الكلام أو

الكتابة (literature genres) لكي نستطيع فهمها. فعلى سبيل المثال نذكر أصناف الكتابة التالية: أ) الشعر، ب) البحث العلمي، ج) الخطاب التحريضي، د) الدفاع أمام القضاء، هـ) النهيوي، و) التبشيري، ز) الهجاء، ح) الرثاء، ط) الإرشاد، ي) التعليم، ك) الأخبار وغيرها. كما نميّز بين أساليب تعبير، غالباً ما يستعملها الكاتب أو متكلم في الموضوع الواحد. كإسلوب أ) الوصف، ب) البرهان، ج) القصة، د) الصلاة، هـ) الوعظ وغيرها.

إن أقدم ما وصلنا من حفظ الانسان لفكره مدونا هو رسومات على حيطان الكهوف التي سكنها. وأقدمها إلى الآن هو كهف في أفريقيا يعود إلى حوالي ٣١ ألف سنة^٢ خلت. الأرجح أن قد كان للإنسان محاولات كثيرة أخرى لتدوين همومه وأفكاره واكتشافاته، ربما فاقت بقدمها الرسومات المكتشفة العائدة إلى حوالي ٣١ ألف سنة.

في حين نجهل الكثير عن كيفية تطوّر مقدرة الانسان اللغوية واللفظية، فإننا نعلم نسبياً أكثر عن كيفية تطور لغاتنا المكتوبة. وذلك ببساطة يعود إلى أن الكتابة هي بحدّ ذاتها مادة حسيّة للدرس، غالباً ما وصلتنا مدوّنة على الحجارة، أو الفخار، أو عظام الحيوانات أو جلدها، أو ورق البردي أو غيرها.

في الحضارات القديمة، وبعد أن طوّرت الشعوب المختلفة نظام كتابة تصويري، ثم لفظي فأبجدي، ظهرت مهنة الكاتب. إذ أنّ صناعة الكتابة لم تكن منتشرة كما نعرفها اليوم. بل كانت حكرًا على الكهنة في الحضارة الفرعونية مثلاً، الذين حافظوا على طابعها السري المقدّس. بينما كانت الكتابة مهنة وضيعة في حضارات الهلال الخصيب، التي رأت فيها عمل سلبي يقوم على تلقين المؤلف للكاتب ما يجب تدوينه من انتصارات الملوك وامجادهم بغية تخليدهم. أعتبر الاقدمون بأغلبهم الكتابة شكلاً ميت للغة، تقع على القارئ مهمة إحيائها وتفسيرها. وكان القارئ بمثابة نبي يُعيد الحياة لنص ميت، لا معنى ولا مفعول له، إلا على قدر شطارة قارئه أو مفسرّه. ودرجت العادة عند الملوك الأقدمين أن يتواصلوا مع أقرانهم بارسال رسالة مكتوبة، يقرؤها حاملها ويشرح فحواها. وكان إرسال رسالة خطية دون من يقرؤها ويفسرّها يعتبر إهانة.

من أجل قراءة واضحة، يجب أن يتفق الكاتب والقارئ على قواعد لغوية مشتركة، ويلتزموا به عند الكتابة والقراءة، وإلا لن يصل فكر الكاتب مفهومًا وواضحًا إلى القارئ والسامع. بالطبع بالنسبة إلى غالبية الناس اليوم هذا أمرٌ بديهي. إنما لا يغربن عن بالنا أن تطوير مثل هذه القواعد اللغوية التي ننعّم بها اليوم، كان حصيلة آلاف بل ملايين السنين من جهد أسلافنا على الأرض. يبقى أن الكفاءة الأهم في الكتابة والقراءة هي الموهبة الشخصية. يلعبُ الدرس دوراً هاماً في صقل هذه الموهبة وتطويرها وضبط قواعدها، لكنها في الأصل عطية مجانية من الله. فالكاتب الجيد هو أولاً متكلم جيد، يعرف لغته ويتقن استعمالها.

طُرُق الكتابة

نناقش تحت هذا العنوان أبرز منهجيات تدوين المعلومات. وقد اعتمد الكاتب في بحثه عن طُرُق الكتابة على مرجع أساسي وهو مقالة في موسوعة "ويكيبيديا" الإلكترونية، تحت عنوان "Writing". وسنعرض لمنهجيات أو نُظُم تدوين المعلومات من الأقدم إلى الأحدث: أ) الكتابة التصويرية، ب) الكتابة الرسمية (وتختلف عن سابقتها بكون رسومها بلغت مستوى أعلى من التجريد، واكتنزت

^٢ راجع The History of Painting على صفحة الانترنت Historyworld.net، ويمكنك تتبع الصفحة التالية:

<http://www.historyworld.net/wrldhis/PlainTextHistories.asp?historyid=ab20> وقد قرأنا بتاريخ ٦ آب ٢٠٠٧.

"Africa has some of the earliest paintings and rock engravings to have been securely dated. Nearly 30,000 years old, they are discovered in 1969 on the rock face in a cave near Twyfelfontein in Namibia."

معاني واضحة ودلالات ثابتة)، (ج) كتابة رموز تدل على مقاطع صوتية، (د) الكتابة الأبجدية، (هـ) الكتابة الإيحائية، (و) والكتابة الفكرية. ويمكن ترتيب هذه المنهجيات الكتابية ضمن أربعة فئات، وهي:

الكتابة التصويرية logograph

الكتابة التصويرية تعتمد على تصوير المعاني (كلمات و افعال)، بحيث يُمثل كل معنى برسم معين. كأن يرسم "رجل" للدلالة على رجل، و"شجرة" للدلالة على شجرة. من البديهي أن الرسومات لم تأتي متطابقة كل مرة أراد الكاتب تصوير معنى معين. أضف إلى ذلك أن معنى الرسم هو مبهم، ينقصه الشرح. فرسم "ثور" على حائط كهفٍ قديم يمكن أن يكون جزء من قصة صيد، أو عبادة دينية للثور وقدرته، أو محاولة لتدجين الثور، أو تدوين مقتنيات شخصية، أو عهد تجارة أو غيرها. من هنا إن تعلم الكتابة التصويرية وقراءتها يتطلب الكثير من الحفظ والوقت ومهارة الرسم ودقة التحليل. لاحقاً أضاف الانسان على اللغة التصويرية رموز صوتية. مثل لغة البينين الصينية (Chinese Pinyin or Hanyu Pinyin)

وفي مرحلة متطورة من الكتابة التصويرية، توصل الإنسان في الهلال الخصيب (المسمارية)، والصين ولاحقاً في المكسيك (المايا) إلى وضع رسوم تدل على مقاطع لغته الصوتية. وتعرف هذه الكتابة بالتصويرية الصوتية logosyllabic. وطور المصريون هذه اللغة بوضعها جدول رسوم للألفاظ القصيرة غير المعلولة (أي غير أحرف العلة). لكن هذه الرسوم الرمزية مازالت تحتاج إلى آلاف السنين من التطور الكتابي لتصير حروف. علماً أن نظام الكتابة بالأحرف طوره الفينيقيون لاحقاً. وتعرف الكتابة التصويرية الدالة على ألفاظ قصيرة (one consom) بالـ logoconsomantal في الانكليزية.

كتابة الرموز الصوتية Syllabaries

تعتمد الكتابة الرمزية الصوتية على تمثيل مقاطع اللفظ برموز وليس برسوم. وتميز بين رموز الفاعل vowels ورموز الألفاظ الصحيحة consonants. في اللغة الرمزية لا تتشابه رموز الألفاظ المتشابهة. فرمز لفظة "لا" مثلاً لا يشبه رمز لفظة "لي" بشيء، إلا من باب الصدفة. إذا عملت اللغات الرمزية الصوتية على وضع جدول رموز أو شيفرة لمقاطع الأصوات أو الألفاظ الأساسية عند شعوبها. لكن لم تتوصل إلى تقسيم أجزاء الألفاظ اللغوية إلى مقاطع أصغر، وهذا ما ستتوصل إليه الكتابات الأبجدية لاحقاً. وأعني بالأبجدية، الكتابة التي تخلو من رموز أو أحرف العلة.

الكتابة الإيحائية أو الإمائية Featural scripts

أعني بالكتابة الإيحائية منهجية الكتابة بناءً على مصدر اللفظ. ومصدر اللفظ هو العضو الذي يستعمله الانسان لإصدار اللفظ. وقد يكون مصدر اللفظ: (١) الشفتين، مثل لفظ الحروف التالية: ب-ف، ن (...b, p, v, m، ٢) الحلق، مثل لفظ الحروف التالية: ح، ق، ك (...، ٣) اللسان، مثل لفظ الحروف التالية: ت، ث، د، ل (...، ٤) الأسنان، مثل لفظ الحروف التالية: ش، س ...، أو غيرها من أعضاء الجهاز اللفظي عند الإنسان. وتأتي بالتالي كتابة الألفاظ ذات المصدر الواحد متشابهة الشكل. مثل حرفي الـ "ت" والـ "ث" في الكتابة العربية المعاصرة على سبيل الصدفة.

الكتابة الأبجدية

كسابقتها أخذت الكتابة الأبجدية عن منهجيات الكتابات السابقة لها، خاصة في منطقة الهلال الخصيب، وطوّرتها. فوضع مطوروها جدول رمزي (غير تصويري) لكل مقطع لفظي ممكن. وذلك بعد أن جُزأت المقاطع اللفظية إلى ما نعرفه اليوم بالأحرف. وفي اللغة الإنكليزية تشير عبارة Abjad script إلى منهجية الكتابة بالأحرف الصحيحة دون الأحرف المعتلة (و، ي، إ، آ). وتُعرف اللغات التي تحتوي على أحرف العلة والصحيحة معا بالالفبائية **alphabetic**.

ويمكن للكتابة الأبجدية (مثل السريانية والآرامية والعبرية والفينيقية والأوغاريتية والعربية القديمة)، أو الألفبائية (مثل اليونانية، واللاتينية، والروسية والهندية والسريانية والعربية الحديثة) أن تُكتب من فوق إلى تحت، أو من اليمين إلى الشمال، أو من تحت إلى فوق، أو من الشمال إلى اليمين، حسب ما يرتأي شعبها. كما ويمكن وصل أحرفها، أو بعضٌ منها، ببعضها بعض من إحدى طرفيها (مثل "و" في العربية توصل مع ما يسبقها ولا توصل مع ما يلحق بها)، أو من طرفيها (مثل حرف "ل" في الكتابة العربية في كلمة "سليم" توصل مع الحرف الذي يسبقها والذي يخلفها).

الكتابة في تاريخ الحضارات البشرية

يُميز المؤرخون غالباً بين فترة ما قبل التاريخ والفترة التاريخية في حياة الإنسان على الأرض. والخطُ الفاصل بين هاتين المرحلتين هو حدث تطوير كتابة اللغات. علماً أن مرحلة تطوير اللغة البشرية وكتابتها لم تنته بعد. وتعودُ جنور بداية هذه المرحلة إلى ما قبل التاريخ، يوم بدأ الإنسان يُدون معلوماته بالرسم على حائط كهف، أو الحفر على جزع شجرة، أو استعمال الحجارة لهندسة أشكال معلوماتية على الأرض. إذاً تميزت طرق الكتابة البشرية، كما الكلام، منذ بدايتها بديناميكيته، أي تطورها الدائم، تبعاً لحاجات مستخدميها. وقد اتجهت من البساطة إلى التعقيد، ثم نظمت الشعوب قواعد لغتها قصد تنظيم استعمالها وتوحيد رموزها. واستعارت الألفاظ والعبارات من جيرانها بغية التطوير والتقدم في الحياة.

تاريخ الكتابة في بلاد ما بين النهرين

وبحسب مقالة "Writing" وقد اضطلعت عليها بتاريخ ٧ آب ٢٠٠٧، كان أهل بلاد ما بين النهرين (العراق حالياً) أوّل مَنْ دَوّنَ لسانهم بحسب آخر الاكتشافات الأركولوجية المصححة. كانت الألفية الرابعة قبل ميلاد يسوع المسيح قد شارفت على نهايتها، يوم اكتشف أهل بلاد ما بين النهرين كيفية الكتابة ودوّنوا بعض معلوماتهم. وكانوا قد استنبطوا طريقة حسابية كتابية لحساب منتوجاتهم وتجارتهم. فكتبوها على الفخار الطريء ثم جففوه. وكان لا بُدّ لهم من معرفة ما تُشيرُ إليه الأرقام المدونة فبدؤوا برسمون شكل ما يدلُّ عليه الرقم إلى جانبه. كأن يُرسم سيفٌ أمام الرقم للدلالة على كمية السيوف التي صنعها الملك. وقد عُرفت هذه الكتابة بالمسمارية لأن كُتابها استعمالوا أقلاماً حادة الرأس تشبه المسمار لكتابتها. في طفولتها اقتصرَت الكتابة المسمارية على استعمال الشكل التصويري، لكنّها سرعان ما تطورت في القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد لتشمل كتابة الألفاظ phonetics أيضاً.

تاريخ الكتابة في الصين

في الصين ترك لنا مؤرخوا ملوك السلالات القديمة الكثير عن حياتهم مدوّناً. فأخبار أيام سلالة سانغ وصلتنا مكتوبة على عظام الحيوانات والواح النحاس. وتعودُ بعض الكتابات الموجودة في الصين المدونة على بيوت السلفاة إلى ١٥٠٠ سنة قبل ميلاد يسوع

المسيح. ومؤخراً تم العصور على ظهر سلحفاة Tortoise shell حفرَ عليه بعض الرموز غير الواضحة، وتعود لـ ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد. لكن لم يثبت العلماء إلى اليوم ما إذا كانت هذه الرموز كتابة للغة معينة ام لا. وفي حال تبين أنها كتابة لغوية، تكون الصين قد سبقت بلاد ما بين النهرين بتطوير قواعد كتابة بألفي سنة تقريباً.

تاريخ الكتابة في مصر

تُعتبر مخطوطات "لوحات نارمر Namer Palette" أقدم ما وصلنا من الكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة، وهي تعود إلى تاريخ ٣٢٠٠ سنة قبل المسيح. والهيروغليفية هي كتابة تصويرية مُطعمة ببعض الرموز اللفظية. وكان لهذه اللغة الفضل الكبير بحفظ واستمرار الحضارة المصرية الفرعونية. وقد حُصر استعمالها بنخبة من الكُتاب. كانوا يُنتخبون من بين اشرف النبلاء ليتمرسوا في فنّها ويكرّسوا لخدمة المقدرات في المجتمع الفرعوني القديم، أعني الهياكل، الفرعون، وأركان الجيش. إعتمدت وحرصت طبقة الكُتاب المقدسة والمُختارة في مصر الفرعونية على تعقيد الكتابة الهيروغليفية، بحيث تمتنع لصعوبتها عن متناول العامة من الناس، وتُحافظ بذلك على سرّيّتها وقديسيّتها.

حوالي السنة الألفين قبل الميلاد، طوّر المصريون في مصر الوسطى الكتابة الهيروغليفية لتصبح أبجدية. ومن هناك نقلها الكنعانيون إلى مدنهم في لبنان خلال الـ ٥٠٠ سنة التالية.

تاريخ الكتابة في فينيقيا

الفينيقيون هم أصلاً شعبٌ كنعاني، تجاري استوطن ساحل البحر المتوسط الشرقي وبنى امبراطورية تجارية حول البحر المتوسط. وعى الفينيقيون أهمية الكتابة لخدمة أعمالهم التجارية وقد تعرّفوا على عدّة أشكال للكتابة بسبب سفرهم وإختلاطهم بشعوب الحضارات القديمة بخاصة في شمال أفريقيا. طوّر الفينيقيون الكتابة الكنعانية وقد أخذت عن الهيروغليفية والمسمارية، قصد تسهيل تجارتهم وربط مستعمراتهم بعضها ببعض. وكانت كتابتهم أبجدية، بمعنى أنهم وضغوا حروف للألفاظ الصحيحة غير المعتلة. وأختلفوا عن المصريين الذين كتّموا كتابتهم الهيروغليفية عن غيرهم، بأن نشروا طريقة الكتابة الأبجدية بفضل اسطولهم التجاري ومستعمراتهم في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا. أخذ اليونان عن الفينيقيين طريقة الكتابة الأبجدية وطوّرها، فأدخلوا عليها أحرف للألفاظ المعتلة vowels بحيث أصبحت ألفبائية. وأعتمدها فيما بعد عدّة شعوب مثل الآراميين، العبرانيين والعرب الذين خلت لغتهم أصلاً من أحرف العلة. كما وجدت الالفبائية طريقها إلى لغات أوروبا وأفريقيا وآسيا كاللاتينية، والروسية، والكريلوسية Cyrillic.

وفي ختام الكلام عن تاريخ كتابة اللغات البشرية، لا بُد من التذكير بأن هذا التاريخ لم ولن ينتهي، بل هو في تطور مستمر. فالكتابة كما اللغة المحكية كائنٌ ديناميكي، يموت بموت من يستعمله. وإذا ما نظرنا إلى التغيير في كتابة اللغة التركية الحديثة، والصربية والكرواتية وغيرها، حيثُ بذلت هذه اللغات ابجدياتها، وطوّرتها، نفهم أن الكتابة ليست بهاضرة جامدة. وعلى المُستوى اللبناني، نرى أنماط كتابة جديدة، تُشبه القرشونية^٣ أحياناً، في غرف الدردشة على الأنترنت. وربما كانت لك عزيزي القارئ بعض الأختبارات في قراءة مثل هذه الكتابة الحديثة اللبنانية، وهي إلى الآن يغلب عليها طابع الشبابية. حيثُ تكتب اللغة اللبنانية العامية (الدارجة) بأحرف لاتينية، وتُستعمل بعض الأرقام على لوحة مفاتيح الكمبيوتر مكان بعض الحروف الموجودة في الأبجديات السامية، والغائبة عن أبجديات

^٣ القرشونية هي طريقة كتابة اللغة اللبنانية أو العربية بأحرف سريانية غربيّة، وهي ليست "لغة" بحسب الاعتقاد الشعبي الشائع، بل هي طريقة كتابة.

أوروبا الغربية. كأن يستعمل الرقم ٧ (العربي لا الهندي) للدلالة على حرف "حاء"، ورقم ٢ للدلالة على حرف القاف المُركخ باللغة الدارجة، ورقم ٣ للدلالة على حرف العين.

إمتداد اللغة التاريخي والجغرافي والاجتماعي

ليس للغات البشرية حدود جغرافية او تاريخية واضحة، إنما تتلاشى حدودها تدريجيا تبعاً لسكن شعبيها وترحالهم. فلغة أو لهجة قريةٍ ما غالباً ما تجد طريقها إلى البلدة المجاورة بسبب احتكاك أهلها مع جيرانهم الأفراد غالباً ما يكون في كل قبيلة أو مجتمع أفراداً موهبين في تعلم اللغات الأجنبية، فيعملون كصلة وصل بين المجتمعات ذات اللغات المتباينة. وقد سبق ورأينا أن أي لغة محكية أو نمط كتابة لم يوجد صدفة، إنما أخذت كل اللغات من سابقاتها وأوحت بالتطور لخلفائها. وكما تتحوّل ثقافات الحضارات البشرية عبر التاريخ، فتأخذ عن بعضها وتتمازج بألوان بعضها، وتتحوّل عبر التاريخ، هكذا اللغات البشرية، لا تضمحل أو تعود إلى العدم، بل تتحوّل مع تحوّل بيئتها الديموغرافية لتأخذ شكلاً جديداً وربما اسماً جديداً. إنّ غريزة البقاء عند الشعوب كانت منذ القديم سبباً لقبولهم بحكم جائر، أو اعتناق دين غريب، أو لغة جديدة، أو عوائد مزعجة، دون التخلي عن هويتهم الأصلية وتقاليدهم القديمة بل تحويلها بما توجبه عليهم التغيرات الاجتماعية والسياسية بهدف الحفاظ عليها ولو مجتزأة. فالناس أفراداً وشعوباً غالباً ما تتأقلم تدريجياً مع ذلك حكم غريب، وتعتادُ عليه بغية البقاء والاستمرار. لأنّ الحياة عزيزة، والروح غالية والبقاء أثمن من التمسك بهويّة حضارة أو اجتماعية. يقبل الانسان التغيير ولو على مضض أولاً، محبةً بالبقاء. نعم لقد كان الثمن الذي دفعه اللبنانيون كبيراً يوم احتل أرضهم، وبيوتهم الأكاديين، الآشوريين، البابليين، الفرس، الفراعنة، اليونان، الرومان، البيزنطيين، والأمويين والعباسيين، والصلبيين، الفاطميين، المماليك، العثمانيين، الفرنسيين وغيرهم. لقد فرض المحتلون الضرائب، الاستعباد وعوائدهم، ودياناتهم ولغاتهم الغربية. إنما، وكغيرهم من الشعوب، تأقلم أهل لبنان مع أنظمة الاحتلال، وتعايشوا معها ولو إلى حين، فتأثروا بها وتركوا آثارهم فيها. إن لغة الإنسان التي تمنحه نعمة التعبير عن نفسه وفهم العالم من حوله، هي عزيزةٌ على قلبه وعقله إلى حدٍ كبير، يجعله لا يتخلى عنها بسهولة مهما كان الإغراء أو التهديد قويا، إنما يُحوّلها ويغيّر ظاهرها من خلال استعارته لمفردات جديدة مثلاً، بغية الحفاظ عليها، وبالتالي الحفاظ على هويته الإثنية والثقافية.

الحدود السياسية واللغة:

لا يغربّن عن بالنا أن حدود الدول السياسية بخاصة في الشرق الاوسط كما نعرفها اليوم هي وليدة الحرب العالمية الثانية. فأصحاب العقود الخامسة من العمر في لبنان ما زالوا يتذكرون كيف كانت الناس تمطي البواخر المسافرة إلى أوروبا وأمريكا عفوياً ومن دون أوراق رسمية. لكن مع تحديد الحدود السياسية، حتى بين دول العالم العربي في نهاية منتصف القرن العشرين، عُرّلت المجتمعات عن بعضها بعضاً. وفرضت حكومات هذه الدول رقبة أدق على من يدخلها ويخرج منها. ولم يكن ضبط الحدود بدون كلفة، بل كان على حسكاب التبادل الثقافي والتجاري بين أبناء الدول المجاورة. فمنطقة الهلال الخصيب مثلاً حكمت كمنطقة سياسية واحدة منذ بداية تاريخها، وغالباً ما كانت في وحدة سياسية ضمت سوريا، لبنان، العراق، فلسطين، الاردن، مصر وتركيا، وجزر البحر المتوسط الشرقية، واليونان، وايران والهند أحياناً، ثم شبه الجزيرة العربية بعد الفتح الإسلامي العربي. وفي عهد الحكم اليوناني (٣٢٣ ق.م.) توسعت حدود امبروطريتهم لتشمل الهند وشمال أفريقيا، والهلال الخصيب، وآسا الصغرى. وبعد أن انتقلت امبراطورية اليونان إلى

الحكم الرومان البيزنطي (٦٤ ق م - ٦٧٧ م) تمتع أبناء المدن اللبنانية الكبرى بجنسية الأمبراطورية الرومانية التي ضمت أوروبا الغربية والشرقية، آسيا الصغرى، الهلال الخصيب، وشمال أفريقيا. وكان من الطبيعي أن يكون لهذه الامبراطوريات المترامية الأطراف عبر التاريخ، لغة ثقافية موحدة وموحدة. وتُدعى مثل هذه اللغة في علم الألسن باللغة الحرّة world lingua franca (راجع جدول رقم ١). واليوم بعد أن جرت دول العالم (بخاصة الثالث) إلى دوليات، وُحدت حدودها بالدم والصراعات الإقليمية، تعود هذه الدول إلى العمل على فتح حدودها الاقتصادية والثقافية والتجارية، ضمن مشروع يُعرف اليوم بالعوامة. لكن هذه العوامة التي تُبهرُ أنظار بعض صغار النفوس اليوم، ليست إلا نظام ثقافي، اقتصادي وسياسي قديم، حُكم العالم القديم بحسبه حتى الحرب العالمية الأولى ١٩١٦ م. واليوم، كما في الأمس يعي العالم حاجته إلى لغة شاملة، تعرف في علم الألسن باللغة الحرّة lingua franca، سنشرحها لاحقاً. إنما باختصار اللغة الحرّة هي ما اتفق عليه شعوب تباينت ألسنها لتكون لغتهم المشتركة. فعندما يستعمل العمال الهنود والسريلنكيون في الخليج العربي مثلاً اللغة الانكليزية للتواصل مع أهل البلد، تكون اللغة الانكليزية، لغة حرّة اختارها الطرفان المتواصلان لأسباب عدّة، أهمها معرفتها افضل من غيرها من قبل الاطراف المعنية.

الحدود الإجتماعية للغة

قال عالم اللغات 2000, p. 4: Trudgill

"إذا ما أردنا تحديد حدود لغة ما، يُمكننا القول بأن شخصان لا يستطيعان فهم كلام بعضهما بعض، ينتميان إلى لغتين مختلفتين." "In attempting to decide which language someone is speaking, we could say that if two speakers cannot understand each other, then they are speaking different languages." وهنا تبرز صعوبة الإجابة بدقة على مثل هذا السؤال، والأفضل إعادة صياغته: إلى أي حدّ يفهم شخصان مختلفان لغة بعضهما بعض؟ والجواب يمكن أن يتراوح بين ٩٩% إلى صفر بالمئة.

لكلّ مجتمع نظام إجتماعي، يتبع سياسة الفصل بين طبقاته المتباينة من أجل تنظيم تعايشها وانخراطها في بيئة اجتماعية واحدة، حيثُ يكونُ لكل طبقة فيه دورها وهويتها المميزين. تعتمد هذه السياسة الإجتماعية والمؤسسية الفصل بين فئات المجتمع الواحد بغية تنظيم تعايشها وعلاقاتها الإجتماعية. والمجتمعات تُقسم في جماعات ديموغرافية سياسية بناء على الفروقات الاقتصادية، الدينية، العرقية، العلمية واللغوية وغيرها. فأبناء الطائف الواحدة في لبنان مثلاً يتمركزون في سكنها في منطقة معينة، لهم مؤسساتهم الدينية، التربوية والثقافية التي تضمن استمرارهم. وتعمل على تحصين رقتهم الجغرافية وحقوقهم السياسية وعلى تنظيم علاقاتهم ببقية طوائف الوطن. وتلعب اللغة، اللهجة^٤ أو اللدغة دوراً هاماً في فصل وتمييز فئات المجتمع الواحد عن بعضها. ففي مدن الهلال الخصيب مثلاً،

^٤ اللهجة dialect هي طريقة لفظ وقاموس جزئي مغاير لباقي اللهجات في المجتمع اللغوي الواحد. فتحتوي اللهجة على (أ) طريقة لفظ خاصة، (ب) عبارات مختلفة نوعاً واستعمالاً. ففي بعض مناطق شمال لبنان مثلاً يُسمى "المرطبان" بـ"أرطميز"، و"الشحاطة" بـ"تسوما" وهذا فرق في اللهجة. أما الفرق في اللدغة accent فيقتصر على طريقة اللفظ. كأن يلفظ دورز لبنان حرفي القاف والطاء كما في اللفظ المعتمد في اللغة العربية الفصحى. بينما يلفظ بقية اللبنانيون هذين الحرفين مركبين على الشكل التالي: قاف، مثل في قمر = amar، والطاء مثل "ظفر" = ضفر doufer.

Cf also Trudgill, (2000). Page 5 "The term **dialect** refers, strictly speaking, to differences between kinds of language which are differences of vocabulary and grammar as well as pronunciation.

حيث هناك جماعات مسيحية بجانب الأكثرية السنوية، تلعب اللغة او اللهجة دورا هاما، بالإضافة إلى الملابس والعادات والتقاليد، في تمييز أبناء الطوائف المختلفة عن بعضهم. وتستعمل اللغة والدين في هذا المجال كحدود وهمية اجتماعية، تضمن فصل أبناء الفئات المختلفة عن بعضهم لدرء التصادم والعنف، تحت لواء التعايش، وتسمح لنا بالتعرّف على هوية متكلميها المناطقية والطائفية والاجتماعية.

ويشرح Wardhaugh 2002, p. 28 أن الناس الذين يتكلمون لغة واحدة، أو متشابهة إلى حدّ بعيد، قد يقولون بأنهم يتكلمون لغاتٍ مختلفة، بقصد تمييز ذواتهم عمّن يتكلمون نفس اللغة، انما ينتمون لفئة اجتماعية مختلفة. ويزيد السيد °Wardhaugh: "إن العنصر الاجتماعي التاريخي يلعب دوراً أساسيا في تحديد الحدود اللغوية. فالهنود والأردو في الهند مثلا، والصرب والكروات في يوغوسلافيا (قديمًا)، وشعوب الفانتي والتوي في غرب أفريقيا، والبوكمال والنيروسك في النروج، والكشوا والإيمارا في بيرو، وغيرهم كثير، يقولون بأنهم يتكلمون لغات مختلفة، وهذا ما تشهد عليه قوانينهم وكتابتهم. علماء أنّ لغات هذه الشعوب تتشابه إلى حدّ بعيد من ناحية القواعد والمفردات. ومن ناحية أخرى تُعتبر لغةً واحدة ولأسبابٍ سياسية واجتماعية كل من: (أ) اللغة العربية في العراق، المغرب ومصر، (أو ب) الوالش في شمال وجنوب ويلز، (أو ج) اللهجات المحلية في راجستان وبيهار شمال الهند. علماء أنّ هناك فروقات على مستوى القواعد والمفردات بين هذه اللغات كبيرة لدرجة، أنّها تُعيق فهمها المتبادل من الشعوب التي تدّعي أنّها تتكلمها! وإذا ما نظرنا إلى السوق اللغوي في الصين، نرى أنّ متكلمي لغة الكنتون Cantonese ولغة المندارين Mandarine يقولون بأنهم يتكلمون نفس اللغة، وهي الصينية. لكن في الواقع لا يستطيع شخصان صينيّان، احدهما يتكلم الكنتون ولا يعرف المندارين، والآخر يعرف المندارين ويجهل الكنتون، لا يستطيعان أن يتوصلا، أو يفهما كلام بعضهما! نُصرّ الصين على إعتبار لغاتها الكثيرة والمتباينة جدا على أنّها لهجات مختلفة للغة واحدة. رغم تناقض هذا الإدعاء مع الواقع اللغوي. ونفهم أنّ الدافع وراء مثل هذا الإدعاء هو لفت النظر إلى الوحدة القومية، واستعمال اللغة لخدمة هذا الغرض. وبينما إختلف أهل الصرب وكرواتيه سياسيا، واتفقوا على تقسيم أرضهم ومواردها ولغتهم الواحدة إلى جزئين. يكتبها أهل الصرب بالحروف الكريلوسية Cyrillic alphabets، بينما يكتبها أهل كرواتية بالأبجدية اللاتينية، مما يعكس انتماء هذين الشعبين الديني المختلف (الصرب هم أورتذكس، والكروات هم كاثوليك). إتفق في مكان آخر من العالم، أهل ماليزيا وأندونيسا على العمل على تقريب لغتهما فيتشابهها أكثر فأكثر، رغبةً منهما بإظهار تقاربهم الديني الإسلامي.

ويتبين لنا من هذه الأمثال بأنّ الحدود اللغوية بين جماعة وجماعة يُمكن أن تضخم أو تقلص لخدمة أغراض سياسية. لأن اللغة تلعب دوراً هاماً في تحديد الهوية القومية للشعوب. ففي الدول العربية مثلا قرّ القرار على إعتبار اللهجات المحلية المتباينة إلى حدّ بعيد بخاصة المغرب العربي والهلال الخصيب، أو بين مصر وغيرها من الدول العربية على أنّها كلها "لغة عربية". وهذا لخلق وحدة

The term **accent**, on the other hand, refers solely to differences of pronunciation, and it is often important to distinguish clearly between the two."

Wardhaugh (2002) Sociohistorical factors play a crucial role in determining boundaries. Hindi and Urdu in India, ° Serbian and Croatian in Yugoslavia, Fanti and Twi in West Africa, Bokmal and Nynorsk in Norway, Kechwa and Aimara in Peru, to name just a few, are recognized as discrete language both popularly and in law, yet they are almost identical at the level of grammar. On the other hand, the literary and colloquial forms of Arabic used in Iraq, Morocco, and Egypt, or the Welsh of North and South Wales, the local dialects of Rajasthan and Bihar in North India are grammatically quite separate, yet only one language is recognized in each case' (page 28).

لغوية، وإن غير واقعية بين شعوب تلك الدول. وفي الولايات المتحدة الاميركية مثلاً، يتعمد السود من الناس (من أصل افريقي) تكلم لهجة خاصة، تميزهم عن عامة الشعب الأبيض، وتحمي تراثهم من الأندثار. وبالتالي تبلور وتقوي انتمائهم القومي كسود أمريكا الشمالية. ويستعمل الأرمن في لبنان اللغة الأرمنية بغية الحفاظ على هويتهم الثقافية وتراثهم وقيمهم وعوائدهم، فلا تندثر وتضمحل بسبب إختلافهم عن الأكثرية اللبنانية. وتعمل هنا اللغة على ضبط الحدود الإجتماعية. فهي في آن سوراً يحمي شعبها من التدخلات الغربية، وجسراً لقاء إنتقائي مع محيطها. وتستخدم اللغة لنفس الغاية عدّة جاليات لبنانية، مصرية، ويمنية، وصينية وأوروبية وأفريقية في أمريكا الشمالية، واستراليا، وأوروبا وغيرها. ويقول Wardhaugh 2002, p.27 في هذا المجال:

Any enduring social relationship or group may come to define itself by selection and/or creation of linguistic features, and a difference of accent may be as important at one boundary as a difference of grammar at another. Part of the creativity of users of languages lies in the freedom to determine what and how much linguistic difference matters.

بمعنى أنّ التاريخ حافل بفئات اجتماعية حاولت وتحاول تغيير لغتها بغية تمييز نفسها عن جيرانها. أو العكس صحيح. وتغيير اللغة يكون إما بتغيير إسمها، ثم الإدعاء بأنها مشابهة للغة التي يُراد التماهي مع شعبها. أو بفتح باب الاستعارة اللغوية على مصراعيه، أو حتى بتغيير حروف الكتابة كما في إيران وتركيا، ومحاولة السيد سعيد عقل في توقيع ابجدية جديدة للغة اللبنانية، أو بتغيير القواعد من خلال مؤسسات الدولة اللغوية. وغالبا ما تُستعمل المؤسسات التربوية من قبل دولها وشعوبها لدعم وتسويق قرار تغيير اللغة، من أجل هوية قومية "أفضل". وفي الهند على سبيل المثال، يرى عاملوا الإحصائيات أنفسهم أمام أسماء مختلفة لأشكال لغة واحدة، يُعرّف بها متكلموها على أنّها لغة مستقلة. ويُمكن لإسم شكل اللغة الواحدة أن يختلف باختلاف المنطقة الجغرافية، أو القبيلة التي تتكلمها، أو الدين، أو القرية، أو غير ذلك. حتى إن الفرد نفسه يُمكن أن يُشير إلى لغته بإسم مختلف إذا ما سُئل عنها بعد فترة، تبعاً لتغيير انتمائه السياسي، أو ارتقائه إلى مستوى إجتماعي جديد، أو تغيير مكان سكنه، إلخ. (راجع Wardhaugh 2002 & Trudgill 2000).

يبقى أنه ليس للغات البشرية حدود واضحة، بل تتلاشى حدودها تبعاً كلما اقتربت من حدود لغة أخرى. فمثلاً لهجة فلسطيني قطاع غزة متشابهة إلى حدّ بعيد مع لهجة مصريين سيناء. بينما تُشابه لهجة فلسطيني الجليل (قبل الإحتلال الإسرائيلي) لهجة أبناء جنوب لبنان. وفي لبنان مثلاً لهجات مناطقية متميزة. فلهجة أبناء الشمال مميزة عن لهجة أبناء البقاع، عن لهجة أبناء الجنوب. لكن يصعب على أي لغوي تحديد خط وهمي يفصل بين لهجة وأخرى. إنما تستمر أي لهجة أو لغة عبر الحدود السياسية والاجتماعية لكي تتلاشى تدريجياً. وإذا ما عدنا بالتاريخ إلى ما قبل الحرب العالمية الاولى، حيث كان الهلال الخصيب جزءاً من السلطنة العثمانية، يصعب علينا أكثر فأكثر تحديد خط فاصل بين متكلمي اللغة السورية والتركية. فكلما اتجهنا صوب شمال سوريا مع الحدود التركية، ازادت عناصر اللغة التركية لكي تنتقي منها تدريجياً عناصر اللغة السورية في عمق الداخل التركي.

ولا بُد من الإشارة هنا إلى أهمية الفواصل الجغرافية في إعاقة تمدد اللغات. فقد لاحظ علماء اللغات أنّ غالباً ما تختلف لهجة ما بين ضفتي النهر الواحد. فالحوجز الجغرافية مثل الأنهر، الوديان السحيقة، البحار، وغيرها من صنع الانسان مثل الحصون، والحوجز الاجتماعية، الدينية، العرقية والأقتصادية وغيرها، تعوق انتشار اللغة بقدر ما تعوق انتشار أهلها وانخراطهم في مجتمعات غريبة. أضف إلى ذلك أن اللغات المختلفة غالباً ما تتشابه، بسبب تمازجها أو تتطابق مصادرها. فالعناصر المشتركة بين اللغات المختلفة كالألبانية، واليونانية، والتركية، وعدة لغات سلافية Slavic في بلاد البلقان مثلاً، واضحة بشكل لا يُمكن التغاضي عنه.

باختصار يصعب فصل اللغات عن بعضها بعض، لصعوبة فصل المجتمعات والافراد عن بعضها. فالمجتمعات البشرية هي في حركة تواصل وتمازج حضاري دائم، وكذلك هي لغاتها الحيّة.

أشكال اللغة:

سبق أن قلتُ في بدء هذه المقالة بأن اللغة هي "تجسيد لشخصية المتكلم، أي الانسان". وبالتالي يمكن للغة أن تأخذ أشكال عدّة، متنوعية بقدر تنوع فكر الانسان ومخيّلته. هذا التعبير عن النفس ومشاعلها، يمكن أن يكون بالكلام على أشكاله، باللبس، بالموسيقى، بالتمثيل الإيمائي، بالصمت، بالرسم، أو بغيره من الأشكال السمعية والبصرية والمدوّنة. فالمرأة التي تنشرُ غسلها تبعاً لترتيب ما تعبرُ عن شخصيتها وحالتها النفسية، شاعت أم أبت. ومظهر الإنسان الخارجي من ملابس وتسريح شعر وشنوف وأوشام وغيرها يخبرُ الكثير عنه، عن انتمائه الثقافي، الديني والأخلاقي، وعن مستواه الاجتماعي، ونزعاته النفسية والعقلية.

وتجدُرُ الإشارةُ هنا إلى إختلاف معاني اللغات باختلاف محيطها الثقافي. فالشعر الطويل عند الرجال اليهود والمسيحيين الأرتوذكس يدل على إلتزام ديني، بينما ينمُ عن رخاوة في نمط العيش في مجتمعاتٍ أخرى. كما وتختلف الإشارات الجسدية، بخاصة إشارات الأيدي بين مجتمع وآخر. فاللبناني مثلاً يفتح إبهام وسبابة يمينه مقابل إبهام وسبابة يساره بشكل دائرة للتعبير عن المُبالغة في الكلام. بينما تعني الحركة نفسها شتيمة في إيطاليا. وتبقى لغة الرسم هي الأكثر شمولية بين غيرها، بمعنى أنه يسهلُ فهمها على غالبية الناس المنتمين إلى ثقافاتٍ مختلفة، ومستويات علمية متفاوتة، وعائلات لغوية متباينة. فرسُم صورة رجلٍ على باب مرحاض الرجال في مقهى ما، أسهل قراءة من الكتابة باللغة المحلية أو الأجنبية. وليس المجال هنا للإسترسال في درس تاريخ أشكال اللغة على أنواعها، إنما أردتُ ولو بإيجاز تسمية بعضها، والتوقف عند شكلين لغويين هما: العامية، والفصحى.

أولاً: اللغة العامية

العامية هي لغة العامة من الناس، أي لغة البيت والسوق، هي اللغة التي يتكلمها الناس عفواً وبدون أن يدرسونها على معلم، بل يتلقونها في بيئتهم العائلية والاجتماعية. تتميز اللغة العامية بطوعية قواعدها وليونتها أمام التغيير اليومي. فهي أكثر ديناميكية وحيوية إذا ما قورنت باللغة الفصحى. وتاريخياً اللغات العامية هي أقدم من الفصحى التي إذا ما وُجدت، كانت نتيجة حركة توحيد طويلة. إن حركة توحيد اللغات هذه تُعرف بالإنكليزية بالـ *standardization of the languages* وسنعرضُ لها لاحقاً. يُمكن لأي لغة عامية أن تكون مكتوبة أو تقتصر على المحكية. وهي غالباً ما تُلبس شكلها للشعر والغناء والفنون المحكية والمكتوبة الشعبية على أنواعها. خلافاً للإعتقاد الشائع عند العامة، لكل لغة عامية قواعدها وأصولها في استنباط مفردات جديدة وإعرابها. ليس الطفل بحاجة إلى تلقن أصول لغته الأم في أي مدرسة، إنما وبكل عفوية يتعلمها، يُمارسها، ويُطورها في مجتمعه تدريجياً. فأهم ما يُميّز اللغة، هو أنّها ديناميكية، بتطور مستمر. هذا التطور ينفذ طوعاً لحاجات السوق *it is primarily a market driven dynamism*. وحرّي بالتالي هنا بأن اللغة العامية هي أكثر طواعية وقابلية للتطور من أي شكل توحيدي (فصحى) لها. يرتاح عامة الناس في الكلام بلغتهم الأم، عامية كانت أم توحيدية. وفي الدول العربية حيث اللغة الفصحى هي لغة مينة، بحسب النحويين المتخصصين بعلم اللغات، ينفر عامة الشعب منها، ويجدون فيها الكثير من التكلّف والتصنع. إذ هي لغة غريبة عنهم. وتعرض السيدة Haeri, 1997, p. 218 لموضوع نفور عامة الناس من اللغة الفصحى في الدول العربية، تقول:

In fact a speaker of standard Arabic in Egypt, is perceived as a foreigner. بعد دراستها. وفي مصر لا أحد يتكلم العربية الفصحى. وإذا ما فعل أحدهم، يُعامله الناس كغريبٍ عن البلد.

عربي يتكلم الفصحى عفواً، انما

“[...] With respect to Egypt, there is no one [who speaks Arabic] and when there is, people treat him like he is not Egyptian, like he is from [one of the] Arabic [Gulf] countries. The important thing is [in any case that] he is not Egyptian.”

Page 217, Haeri quoted from El-Messiri (1978): “The ‘real’ Egyptian must be loyal to his country, love it and remain attached to it. The ‘ibn-al-balad’ also sees himself as being direct and simple in speech, not sophisticated. It is often said in conversation, when someone starts to philosophise and use classical Arabic words, ‘Make your point in baladi’.”

ص. ٢١٧ "على المصري الحق أن يكون وفياً لبلده، يحبّه ويُخلص له. "فابن البلد" بسيط و عفوي في كلامه، وليس متفلسفاً. وإذا ما تفلسف أحدهم في كلامه، طلب منه سامعيه أن يتكلم "بلدي".

Page 218 One of the participants in Haeri (1997, page 218) when asked about whether he prefers ‘ammiyya (Egyptian colloquial) to Standard Arabic he answered with an absolute tone that he prefers the Egyptian colloquial, then when Haeri “pressed further to articulate the reasons behind his preference he responded quite eloquently in his way: ‘Because this (‘ammiyya) is my language or my dialect and the dialect that is around me and I grew up (appeared, showed up) and found it is ‘ammiyya that is prevalent in the house, in the street, in the neighborhood, at work, and in all of Egypt’.”

ص. ٢١٨ "وعندما سئل أحد المشاركين في دراسة Haeri 1997 حول بيئة مصر اللغوية، أي لغة يُفضّل: العامية (البلدي) أو الفصحى. أجاب أنه يفضل العامية، فهي "لغتي، لهجتي ولغة محيطي. ربيتُ معها في البيت والشارع والحى والعمل وفي كل مصر.

ثانياً: اللغة الفصحى.

والأصح تسميتها باللغة التوحيدة، إذ هي في الأصل محاولة لتوحيد عدّة لغات عامية ضمن قالب قواعد جامد بعض الشيء، يستطيع أن يؤمن إستقراراً وثباتاً لغوياً. بما أن تسهيل وتنظيم التواصل بين البشر بهدف التجارة، أو البشارة الحضارية أو الدينية أو غيرها من الأهداف هي من أساس مهام اللغة، لذا كان من البديهي بمكان أن تحدد المجتمعات البشرية المتكلمة لهجات متباينة إلى التوصل إلى لغة موحدة لتسهيل التواصل فيما بينها، وتوحيد مدلول الكلام والكتابة لتقليص سوء التفاهم وبالتالي تسهيل التواصل بين أبناء البيئة اللغوية الواحدة. من هنا ومنذ بداية تاريخ المجتمعات البشرية، نحا الإنسان إلى توحيد لهجات الجماعات المختلفة في لغة واحدة، عُرفت بالفصحى، أو الرسمية، أو اللغة الموحدة وذلك بشكل عفوي دون سابق تخطيط. إذاً يمكن القول بأن توحيد اللغة يعود إلى تاريخ التقاء أول شخصين لهما مفهومان مختلفان ولو بعض الشيء للعبارة نفسها. ونلاحظ من خلال دراستنا لحركات توحيد اللغة وstandardization of language، أنها نمت في المَدُن urban centers، حيث يلتقي الناس من كل حذبٍ وصوب ومن كل لسان وعرق. وسنعرض لاحقاً لمسألة "توحيد اللغات" أو المعروف أكثر بظاهرة اللغات الفصحى أو الرسمية، تحت عنوان "التوحيد

اللغوي". وتجدر الإشارة هنا إلى أن لغة الفصحى لا لهجة لها. بل يُمكن إستعمالها بعدة لهجات محلية على قدم المساواة. ويشير العالم Trudgill 2000, p. 7 إلى هذا الواقع يقول:

"ليس للغة الانكليزية الفصحى لدغة (اسلوب) "There is no universally acknowledged standard accent for English, and it is, at least in theory, possible to speak Standard English with any regional or social accent. لمعينة، ويمكن تبني أي لدغة محلية للكلام بالفصحى".

تعدد أشكال اللغة Diglossia

التعددية في استعمال اللغة تعني وجود أكثر من شكل (شفهي وكتابي) للغة الواحدة. ويختار الناس الشكل المناسب للغتهم تبعاً للظروف والمناسبة الاجتماعية. وهناك الكثير من اللغات حول العالم التي تحتوي على عدة أشكال، أو لهجات، كالعامية والفصحى مثلاً. وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر اللغات (العربية، ب) اليونانية الحديثة، السويدية الألمانية، وكريول هايتي. وظاهرة وجود أكثر من شكل في اللغة العربية قديمة، تعود إلى الفرق بين لغة القرآن الكلاسيكية الأدبية من جهة، وبين اللغات المحلية المحكية. كذلك اللغة اليونانية شكل أدبي رفيع يرتكز جزئياً على اللغة اليونانية القديمة. بينما يُعزى شكل اللغة السويسرية الألمانية المغاير عن اللغة الألمانية لإنعزالها الطويل عن اللغة الألمانية الأم لأسباب دينية وسياسية. كما وللغة كريول هايتي المقتبسة عن الفرنسية شكلان، شعبي وفصحى. الشكل الشعبي هو لغة شعب هايتي، والفصحى الفرنسية فرضت بسبب سيطرة الفرنسيين السياسية والثقافية على هايتي لسنين عدة.

عند الكلام عن تعددية أشكال اللغة، غالباً ما يكون هناك نوعان: العامية والفصحى. وفي بعض الحالات كما في الهند هناك شكل لغوي لكل طبقة اجتماعية، وقد نجد في بعض الحالات حوالي سبع أشكال لغوية مختلفة في القرية الواحدة. مثلاً لغة اللنجارين تختلف في مفرداتها وقواعدها عن باقي أشكال اللغة، ولغة للنساء تختلف عن لغة الرجال، ولغة للأطفال، وأخرى للتجار، وأخرى للمزارعين وهاكذا دواليك. ولكي يتعلم الإنسان اللغة عليه أن يعرف متى وكيف يستعمل كل شكل من أشكالها. فنحن عادةً ما نُدرّس شكل الفصحى من العربية للأجانب الذين يُريدون تعلم اللغة اللبنانية، دون أن نفسّر لهم، أن هناك على الأقل شكلان مختلفان للغة اللبنانية المعاصرة، وهما اللغة العامية التي تتحوّل من منطقة إلى أخرى ومن جماعة دينية إلى أخرى، واللغة الفصحى. ويُفاجئ من درس اللغة العربية الفصحى عندما يستعملها في الحياة اليومية في لبنان، ويفهم سريعاً من نظرة الناس له، أنه ارتكب خطأ ما. غالباً ما يجهله، خاصة إذا ما كان من بيئة لغوية لا تعرف تعددية الأشكال.

ولكي يتحاشى المرء السخرية والمواقف الحرجة أمام الناس، عليه أن يتعلم أشكال لغتهم المختلفة وكيفية استعمالها، ومتى يستعملها. ويظهر الجدول الآتي بعض المناسبات التي تفرض شكلاً لغوياً دون سواها في لبنان، حيث تتوفر أشكال عدة للغة الواحدة:

جدول تنوع اشكال اللغة اللبنانية بحسب المناسبة الاجتماعية

نوع اللغة	شكل الكلام
عامية مطعمّة بالأجنبية المكسرة	مخاطبة خدم أو عمال اجانب غير عرب.
عامية مكتوبة بحرف لاتيني مطعممة بالانكليزية والفرنسية وغيرها من اللغة الغربية.	sms, email, internet chatting
عامية مناطقية	مخاطبة الأهل، وأبناء المنطقة الواحدة. نكة. زيارة اصحاب، اهل، نادي، شارع، سوق...
عامية مع التشديد على لفظ الـ"قاف" على طريقة الفصحى	بين الدروز مع بعض الاستثناءات
مزيج بين العامية والفصحى	خطاب رسمي: سياسي، ديني، وعظ...
فصحى مُلبنة	نشرة الأخبار السياسية والاقتصادية والمالية...
عامية	نشرة أخبار الرياضة والطقس. زجل، غناء شعبي (دلعوننا، ميجانا، عاتابا...)
عامية ممزوجة بالانكليزية والفرنسية	برامج Soap opera مثل "يا ليل يا عين"
فصحى	جرائد ومطبوعات رسمية. شعر أدبي كلاسيكي.
عامية مطعمّة بالأجنبية	كاريكاتور سياسي. نشرة أخبارة الرياضة. احاديث صالونات. احاديث مهن (ميكانيك، تربية، سيارات، كهرباء، فنادق...)

يميلُ الناس إلى الاعتقاد بأنّ الفصحى أكبرُ شأنًا من العامية، والفرنسية والانكليزية أعلى شأنًا من اللغة المحلية. وهذا أمرٌ شائع في أغلب مجتمعات دول العالم الثالث. وغالبا ما تتخذ الخطابات الدينية شكل اللغة الكلاسيكية الفصحى، ويصبغ الدين اللغة الفصحى بهويته، مُحاولا إبرازها كمثل أسمى للغة. وهذه حالة أغلب الإسلام والمسيحيين في الدول العربية، والبروتستانت في أمريكا وأوروبا، والأرتودكس في اليونان... والمقطع التالي من السيدة Haeri الخبيرة بعلم الألسن، والمتخصصة في دراسة اللغة العربية، يُشير بوضوح إلى هذا التمييز بين اللغة العامية واللغة الفصحى في العراق، وهو ينطبق على أغلب المجتمعات العربية السنيّة، لما عرفته هذه المجتمعات من تاريخ طويل من محاولة تقديس اللغة العربية الفصحى. وتستههد السيدة Haeri 1997, p. 219 بدراسة لصالح التوما ١٩٦٩ الذي درس لغة العراق من منظار اجتماعي:

In spite of its use as the dominant medium of the spoken word in conversation, and in various cultural or artistic contexts such as songs, stage, and movies, the colloquial lacks the prestige enjoyed by the Classical and is looked upon, often with a considerable degree of contempt, as a stigma of illiteracy and ignorance.

بالرغم من سيطرة اللغة العامية على محادثات عدّة في حفل الفنون والغناء والمسرح والأفلام، يفتقر الشكل العامي للغة العراقية إلى هيبة الفصحى العربية. وغالبا ما يعتقد الناس (خطأ) أن العامية هي لغة الأميين والجهلاء.

Page 222, 223 In brief, what Haeri found that Haeri 1997, p. وتضيف السيدة. 222 أن غالبية أهل مصر –وينطبق هذا الحال على لبنان أيضاً- يعتقدون بأنّ اللغة الفصحى العربية أسمى وأشرف من لغتهم البلدية. وتعجز اللهجات العامية عن مجاريتها جمالا، قوّة، وصحّة. لكنهم يعتقدون أيضاً بأنّ الفصحى ثقيلة، غير شعبية، وتفنقر إلى الاحساس الصادق وروح المرح، وهي محصورة برجال الدين وأهل شبه الجزيرة العربية.

On the basis of speakers' own characterizations, it is clear that on the one hand they concur with official views that 'il luyā il 'arabiyya' represents the highest linguistic norms of the society, while 'ammiyya cannot match it in its 'beauty,' 'power,' and 'correctness.' On the other hand, Classical Arabic lacks 'humor,' is 'heavy' and full of 'takallof,' [pretense and affectedness] and its use is mostly attributed to religious men and those who are from other Arab countries [i.e. from the Arab Gulf].

لأغلب المجتمعات أكثر من شكل لغوي. مثلا في الولايات المتحدة الامريكية هناك لهجات مناطقيه، وأخرى عرقية (السود في الجنوب أو الشمال، والبيض والمتحدرين من أمريكا اللاتنية ...). ولكل لغة قيمتها الاجتماعية. فمثلا غالبا ما تُستعمل الفصحى في المدارس والجامعات والمطبوعات، وتُعتبر شكلا أكمل أو أرقى من العامية. وربما إدعى بعض الناس لهجهم طبيعة تكوين اللغات البشرية، بأن الفصحى هي أقدم من العامية، ويمكن أن تكون مصدر لها. إنما العكس صحيح في هذا المجال. وهاك جدول يُبيّن الفرق بين شكلي اللغة العامية التي غالبا ما يُنظر إليها على أن اقل شأنًا من الفصحى، وهي لغة المثقفين والمتدينين، وأصحاب الشأن في مجتمعهم:

جدول الفرق بين العامية والفصحى (مبني على:

Sociolinguistics: course notes. EMU winter 2004. by Grondona.

الفصحى	العامية	
ذات أهمية very prestigious. معروفة أكثر على المستوى العالمي، والمطبوعات. غريبة بعض الشيء عن عامة الناس. جافة، تفتقد الحيوية.	لا هبة prestige لها. محلية. لها مكانتها في المجتمع، قريبة من قلوب الناس، وتعبر عنهم بطريقة أدق. دينامية، ملؤها الحياة.	مكانتها
وعظ، مؤسسات تربوية، خطاب سياسي، إذاعة أخبار رسمية، شعر كلاسيكي، صحافة، طقوس دينية...	تعاطي مع عامة الناس في العمل، في العائلة، في الشارع والسوق، في برامج الاطفال والشباب الاذاعية والتلفزيونية، فنون الفلكلور الشعبي، نكة، على التلفون،	إستعمالها
غالبا ما يعتقد العامة أن الفصحى اكثر منطقا، ولاباقة، وبلاغة. تُدرس (في الكتب والمدرسة...) معقدة، يصعب التمكن منها. تضبطها القواعد والقواميس. مقتصرة على نخبة قليلة من الناس.	غالبا ما نجد مقاومة ضد ترجمة بعض الكتب الكلاسيكية والدينية إلى العامية (مثل الانجيل، رتب الاسرار، القرآن...) يكتسبها الناس عفوا في البيت والمجتمع. بسيطة، سهلة، أساسية basic، عفوية، معبرة، صادقة، حساسة. لا قواعد مكتوبة أو قواميس لها. في تناول جميع الناس.	خصائصها
الفرنسية الفصحى Standard French	كريول هاييتي Haitian Creole	أمثال: هاييتي
Katharévousa	دهيموتيكي Demotic or Dhimotiki	اليونان
Standard French	Swiss German	سويسرا
Standard German	Letzenbuergesch	لوكسمبورغ
Classical Arabic	Regional Arabic or other languages	الدول العربية

يبقى أن هذا التمييز بين أشكال اللغة المختلفة، لا يعني الفصل بينها. فالأشكال اللغوية المختلفة (لهجات) تتمازج بشكل دائم، وتتغير في طريقة لفظها، وتحول معاني مفرداتها، واستعارة مفردات وعبارات جديدة، وانتفاء استعمال مفردات أخرى. وكما يقول السيد (2000) Trudgill صفحة ٤٠:

"ليست لهجات الطبقات الاجتماعية المختلفة لغات قائمة بحد ذاتها، إنم تختلط ببعضها بعضاً لتشكل استمرارية لغوية، كما هي الحال بالنسبة للهجات المناطقيّة. "Like regional dialects, social-class dialects are not distinct entities. They merge into each other to form a continuum."

تعدد الألسن والتنقل بينها multilingualism and code switching

قيل قديماً أن اللغة هي لهجة محلية، يدعمها جيش واسطول، واليوم يُمكننا الإضافة "يدعمها اسطول بحري وجوي". فعندما يقوى شعبٌ ما على جيرانه، يفرض عليهم حضارته وقيمه الإجتماعية، دينه ولغته. والتاريخ محشوٌ ببراهين على ذلك، في الشرق والغرب، كما في أمريكا والصين. وبما أن لكل حضارة تاريخها وبالتالي خبرتها الفريدة ونظرتها المميزة إلى الحياة. وبالتالي لكل حضارة لغتها المميزة منطقاً ومفردات. إنما لا يقف الاختلاف الحضاري والاجتماعي واللغوي بين الشعوب دون تواصلها، بل بالحري هو سببٌ إضافي يؤكد ضرورة تواصلها إذا ما ارادت النمو والاستمرار. فرغبة الانسان في التواصل مع محيطه وجيرانه تدفعه إلى تعلم لغات جديدة، والتكسب من حضارات شعوبها الغريبة.

يُجمع المتخصصين بتعليم اللغات الأجنبية لى أنواعها بأن نجاح أي إنسان في اكتساب لغة أجنبية يعتمد على امتلاكه للغته الأم. وأقصد باللغة الأم اللغة التي يتكلمها عفواً مع أهله منذ صغره، وهي بكل الأحوال ليست لغة، يدرسها في المدرسة. إن اللغة الأم هي أول ما يتعلم الطفل، وبالتالي تُشكل النافذة التي يرى العالم من خلالها، وتطبع إلى حد بعيد منطق تفكيره وابداعه وقيمه. لذا وبعد اختبارات وأبحاث عدة ينصح أهل الاختصاص تعليم الاولاد في المدارس لغتهم الأم، وتدريبهم برنامجهم التعليمي بها دون سواها، أقله لعمر العشر سنوات. إن إقحام تعليم لغة أجنبية على الولد قبل امتلاكه للغته الأم، وبطريقة خاطئة، من شأنه أن يُعرق نمو الولد الفكري والاجتماعي، ويؤثر سلباً على ثقته بنفسه. مثلاً: أن تقول لمعلمة في الصف لابين ٧ سنوات: "غلط مش هيك بيلفظوا"، محاولة تعليمه طريقة لفظ معتمد للغة الفصحى مثلاً، مغايرة لطريقة لفظه لغته الأم. تكون تلك المعلمة بمعرفة أو عن جهل- قد أفهمت التلميذ المُهان بأن لغة أمّه وأهله خطأ، وبأنه وأهله أقل شأنًا من متكلمي اللهجة المنوي تعليمها.

إذا وقبل التفكير بتعليم أي لغة أجنبية، على الانسان أن يتمكّن من لغته الأم، وهي ضرورية لفهمه أي لغة أجنبية. خلال هذا البحث كنتُ قد أشرتُ أكثر من مرّة، وإن بطريقة غير مباشرة، إلى أسباب وظروف تعدد لهجات ولغات الشخص الواحد وكيفية التنقل بينها. إن تعلم لغة جديدة هو تحدي شخصي على الانسان الساعي وراء العلم. إذ أن عليه أن يتقبّل رؤية جديدة للعالم، وطريقة تفكير وسلّم قيم مغاير لذهنيته، تفرضه عليه اللغة الجديدة وثقافتها. وقد يخال بعض الناس خطأ أن درس لغة جديدة يقتصر على تعلم مفرداتها. وكمرّة نفع على عبارات ركيكة وغير واضحة، بسبب ترجمتها دون فهم منطق اللغة المترجم إليها أو منها. فعبارة I made some money تعطي معنى غير واضح إذا ما عرّبت حرفياً بـ"صنعتُ بعض المال". كذلك عبارة It took me two hours to get here، والتي يترجمها اللبنانيون المتأمنون عادة بـ "أخذتني ساعتين لاوصل لهون". وغيرها كثير من عوائد الشعوب اللغوية، كان يعدّ الأمريكان من فوق إلى تحت في رياضاتهم Americans usually count down in sports بينما يعدّ اللبنانيون من الأدنى إلى الأكبر. وعبارة "أثلج الله صدرك" عند العرب هي تمثي الفرح والانشراح، بينما الأرجح فهمها كشتيمة عند شعوب الاسكيمو.

أما أسباب انتقال الانسان من لسان إلى آخى، فيمكن اختصارها ضمن مجموعتين:

أسباب معيشية. كأن يتعلم الانسان لغة المحتل لضرورة التعامل معه والحفاظ على حياته وخبراته. أو أن تتعلم أقلية ما لغة الأكثرية في مجتمعها بهدف الاستمرار.

رغبة في الانخراط في مجتمع ديني، ثقافي، علمي، ترفيهي، أو سوق اقتصادي وعمل جديد.

يبقى أنّ الانسان يستعمل اللغة للدلالة على هويته وانتمائه الأصلي أو المكتسب. فيتعمد اللبناني القاطن في امريكا مثلا تكلم الأمريكية لئيشدّد على هويته الأمريكية المكتسبة، أو يقصد تكلم لغته الام لئيرهن عن أصوله اللبنانية بحسب الحاجة الاجتماعية. وقد لاحظ السيد (Wardhaugh 2002, p. 49) أن:

"لكل من مسيحيي بغداد ويهودها ومسلميها لهجته الخاصة. ويستعمل الأقليات لهجتهم في جماعاتهم، بينما فرضت لهجة المسلمين الأكثرية نفسها كلهجة حُرّة (عامة)."

"In a city like Baghdad the Christian, Jewish, and Muslim inhabitants speak different varieties of Arabic. In this case the first two groups use their variety solely within the group but the Muslim variety serves as a lingua franca, or common language, among the groups."

ولنضطلع على مثل آخر من مدينة نيويورك الأمريكية، حيثُ لاحظ العالم اللغوي لايوف Labov أن لغة الناس او لهجتهم تختلف باختلاف إثنائهم العرقي. فالإيطاليون واليهود يُميزون أنفسهم عن المتكلمين باللهجة الفصحى، أو لهجة السود العامية.

الفنوية في استعمال اللغة:

للنساء لغة وللرجال لغة، للأطفال لغة وللبالغين لغة، للفقراء لغة وللأغنياء لغة، للمتدينين لغة وللعلمانيين لغة، ولكل عرق في المجتمع الواحد لغته.

في كل لغة هناك كلمات مشينة، عيبٌ التلطف بها، وتسمى هذه الكلمات في الانكليزية بـ Taboo words. في أغلب المجتمعات تتضمن الكلمات المشينة الشتائم، أسماء الأعضاء الجنسية بخاصة عند الجنس الآخر، واحيانا اسماء امراض، أو أرواح أو شرور يقبح ذكرها. كأن يقول اللبناني: "معو من هيداك المرض. الله يبعديو!" والمقصود بـ "هيداك المرض" السرطان. وفي كل حضارة هناك ما يقبح ذكره مخافة استحضاره، كأسم الشيطان، أو الموت "الله يبعديو" مثلا. ويدفع احترام اليهود المتدينين لله إلى عدم لفظ اسمه، حتى في القراءة، يُكتب "يهوه" ويُلفظ "أدوناي" أي "الرب". فذكرُ اسم الله "يهوه" أو "ألوهيم" عند اليهود حرام، بينما هو امرٌ مستحب ومبارك عند المسيحيين والاسلام. ويشرح السيد 2000, p. 18 Trudgill الكلمات المشينة، يقول:

"تجتمّل أغلب اللغات على كلمات مشينة. حيث يجب التقيد الصارم بكيفية (متى، أين، من، امام من، وكيف...) استعمالها. وإلا عاقب المجتمع المخالف وألحق به العار. يمتنع الكثيرون عن استعمال كلمات العيب، بينما يسمح قلة لنفوسهم باستعمالها بحذر وتحقظ. يستبدل الناس عادة الكلمات المشينة بأخرى، كما في مثلنا السابق "هيذا"

"Taboo words occur in most languages, and failure to adhere to the often strict rules governing their use can lead to punishment or public shame. Many people will never employ words of this type, and most others will only use them in a restricted set of situations."

المرض"، ويفضّل الامريكان استعمال لفظة rooster للدلالة على ديك الدجاج، بدل cock التي يمكن ان تعني ديك او تشير إلى العضو الذكري. بعض المفردات المشينة تنتفي تدريجيا من اللغة، او يتغير معناها الاصلي.

Because taboo-words are not to be used, people look for substituting terms, for example "Americans prefer to use 'rooster' over 'cock'" (ibid. p. 20), other words perish little by little because people stop to use

them, other terms gain new meanings.

فكلمة "قريع" في اللبنانية تدل على التحقير اليوم. ولم تكن كذلك منذ حوالي مئة عام. حيث كانت التقاليد تفرض على الرجل إذا ما حضر في مناسبة رسمية، أن يعتزم طربوش، او لبادة أو قبعة ما. وكان يُشار إلى عاري الرأس من أي قبعة بالـ"قريع" للدلالة على عدم احترامه للتقاليد المرعية. وهكذا اكتنزت عبارة قريع اللبنانية، معنى اخلاقي يُضاف إلى معناها المجرد، وغالبا ما يطغي عليه. يذكر السيد Trudgill 2000, p 20 واقعة للدلالة على أهمية ألفاظ العيب في اللغات، وكيف تؤثر على اختيار الناس لمفرداتهم، يقول:

"شكيت احدى الفتيات من قبيلة نوتكا
In the case of the "American Indian girl speakers of Nootka –who- have been reported by teachers to be entirely unwilling to use the English word 'such' because of the close phonetic resemblance it bears to the Nootka word for 'vagina'".

وقد يتحاشى للأسباب عينها لبنانيون استعمال كلمة heir, air, kiss في الانكليزية بسبب تشابه ألفاظ هذه الكلمات مع ألفاظ مشينة في لغته الام. وتعطي هذه الأمثال صورة بسيطة وجزئية عن صعوبة الانتقال من لغة إلى أخرى.

تختلف اللغات عن بعضها بعدة أمور، منها طريقة تأنيث وتذكير الكلام. وأغلب اللبنانيون يعرفون صعوبة تعلم كيفية التذكير والتأنيث في لغتهم، بخاصة من قبل الأرمن، وإن قطنوا لبنان من حوالي المئة سنة. ففيما تشدد بعض اللغات على الهوية الجنسية للأشخاص والأشياء، لا تُعير لغات أخرى أهمية لهذا الموضوع. ففي اللغة العربية "الشمس" مؤنثة، بينما كلمة sole في الإيطالية، soleil في الفرنسية هي مذكرة. وكلمة قمر مذكرة في العربية، ومؤنثة في الإيطالية luna، والفرنسية lune. وأغلب أسماء الأشياء لا هوية لها في الانكليزية، حيث يُشار إليها بضمير it المنفصل. في اللغة الالمانية، العربية، الفرنسية، الإيطالية، الاسبانية وغيرها، على المتكلم أن يُحدد ما اذا كان صاحبه ذكر أو انثى. بينما تترك اللغة الانكليزية الأمر مبهم. فقول my friend في الانكليزية، يمكن ان يعني: صديقي، او صديقتي بالتساوي.

وكما أشرنا في بداية هذه الفقرة، هناك لغة للنساء تختلف عن لغة الرجال، بتفاوت ضمن لغات المجتمعات المختلفة. ويُشير العالم

Trudgill 2000, p. 64 أهمية هذا الموضوع، يقول:

"أثبتت الأبحاث العلمية اختلاف لغة الرجال عن لغة النساء بطرق عدّة. والفروقات كبيرة لدرجة يصعب التنكر لها في بعض الحالات، حيث يُعلم صغارُ القوم هذه الفروقات وكيفية استعمالها. فنساءُ قبيلة غروس فنتر الاميركية الاصلية مثلا، تلفظ بعض الاحرف بطريقة مختلفة جدا عن لفظ الرجال لها. فيلظ الرجال دجاتسا، بينما النساء تقول كجاتسا للدلالة على الخبز. يتعلم الرجال كيف يتكلمون ويفكرون بطريقة تمييزهم عن النساء. فعبارة "جكي مثل الرجال" مألوفا في أغلب لغات العالم. وتُستعمل لحت الصبيان على

taught to young children.
In Gros Ventre, for example, an American Indian language from the north-eastern USA, palatalized dental stops in men's speech correspond to palatalized velar men: /djatsa/; women: stops in the speech of women- /kjatsa/ 'bread'."

تختلف اللغات عن بعضها بعدة أمور، منها طريقة تأنيث وتذكير الكلام. وأغلب اللبنانيون يعرفون صعوبة تعلم كيفية التذكير والتأنيث في لغتهم، بخاصة من قبل الأرمن، وإن قطنوا لبنان من حوالي المئة سنة. ففيما تشدد بعض اللغات على الهوية الجنسية للأشخاص والأشياء، لا تُعير لغات أخرى أهمية لهذا الموضوع. ففي اللغة العربية "الشمس" مؤنثة، بينما كلمة sole في الإيطالية، soleil في الفرنسية هي مذكرة. وكلمة قمر مذكرة في العربية، ومؤنثة في الإيطالية luna، والفرنسية lune. وأغلب أسماء الأشياء لا هوية لها في الانكليزية، حيث يُشار إليها بضمير it المنفصل. في اللغة الالمانية، العربية، الفرنسية، الإيطالية، الاسبانية وغيرها، على المتكلم أن يُحدد ما اذا كان صاحبه ذكر أو انثى. بينما تترك اللغة الانكليزية الأمر مبهم. فقول my friend في الانكليزية، يمكن ان يعني: صديقي، او صديقتي بالتساوي.

Men are taught to speak, think and act differently from women. The *speaking like a man* term is quite often used to push little boys to learn how to speak (sound and vocabulary wise) like a man, obeying the prototype setup by the local society.

Page 79 "Gender differentiation in language arises because [...] language, as a social phenomenon, is closely related to social attitudes. Men and women are socially different in that society lays down different social roles for them and expects different behaviour patterns from them. Language simply reflects this social fact."

اكتساب طريقة الكلام والتصرف اللانقة بالرجال. ففي الامريكية العامية يميل الرجل إلى استعمال عبارة *ride like a man* للدلالة على سيارته، بينما تستعمل المرأة عبارة *ride like a woman*. وتكثر العبارات الدالة على الشعور والاحساس عند النساء في اللغتين الانكليزية واللبنانية، بينما يتحاشى الرجال مناقشة أحاسيسهم الشخصية. وباختصار وكما يقول العالم Trudgill 2000 ص. ٧٩: "تنتج الفروقات بين الرجال والنساء بسبب كونهم مختلفين اجتماعيا. فالمجتمع يُعطي لكل منهم دورا مختلفا، ويتوقع منهم التصرف بطريقة مختلفة. واللغة تعكس ببساطة هذه الفروقات الاجتماعية.

إذا تلعب اللغة دورا هاما في بلورة هوية المتكلم الإثنية، الثقافية، الاجتماعية، وايضا الجنسية.

تبدّل معنى العبارات واستعمالها.

"المعنى في قلب الشاعر"، مثل شعبي يُستعمل للدلالة على أن المعنى الحقيقي للكلام ليس في الكلمة الملفوظة، إنما في فكر المتكلم. بالطبع هناك حدود للمعنى الذي يستطيع المتكلم أن يُحمّله لمفرداته، وكلامه على وجه العموم. فمثلاً يمكن لأحدهم الإشارة إلى صحن المجردة على الطاولة، ومخاطبة أخته: "عطيني قطعة بفتاك". فهو عارف بأن ما في الصحن ليس "بفتاك" إنما "مجدرة" لكنه يريد أن يلفت نظر أمه إلى أنه كان يُفضل أن يأكل الـ"بفتاك" بدل المجردة.

هذا المثل يُشير إلى أن معنى الكلام ليس فقط في الكلمة الملفوظة او المكتوبة، إنما اولاً في فكر صاحبها. فعلى المستوى السياسي مثلاً، يختلف مفهوم لبنان الوطن بين سياسي وآخر، تبعاً لإنتماؤهم ومصالحهم السياسية. وعلى صعيد الدين، يختلف مفهوم الله بين: المحبّة، الغفران، العدالة، وبين القتل والظلم والتعدّي على حقوق الناس وحرمتهم، وإخضاعهم باسم الله! إذا يُمكن للكلمة الواحدة أن تُشير إلى مفاهيم متناقضة، ومتباينة، تبعاً لمفهوم المتكلم بها، وأيضاً لمفهوم السامع. فدلالة الكلام تختلف بين شعب وآخر وبين شخص وآخر. هاك قصة حصلت معي، في أول اسبوع لإقامتي في إيطاليا، روما صيف ١٩٩٤.

"كان الجو حار ورطب، وكنت أهمُّ بترك Collegio Damaciano مع بعض الرفاق اللبنانيين. فالتقينا صدفةً بأحد العاملين الإيطاليين في الدير، وفهمنا منه، أن هناك miranda بعد بعض الوقت. فما كان ممّا إلا أن لغينا مشروع النزهة رغبةً في شرب الميرندا الباردة... وتفاجئنا لرؤيتنا على الطاولة الحليب الساخن، وبعض البسكوت... فهرعنا إلى العامل الايطالي، ولم يكن بعيداً، وسألناه عن الميرندا؟ فأجاب: "إنها على الطاولة في الصالة!". ثم أعدنا السؤال: "أنت لا تفهم، نحن نطلب الميرندا الباردة...". ووكم كانت دهشتنا، وخيبة أملنا كبيرة لمعرفة أن عبارة ميرندا في الإيطالية تعني "العصرونية". فبينما توقعنا كلبانبيين شراب الميرندا الغازي البارد المنعش في الصيف. قصد العامل الإيطالي بالميرندا طعام العصرونية!"

وهاك قصة ثانية تُشير إلى أن مفهوم المستمع للكلام قد يختلف بطريقة جوهرية عن غيره من المستمعين، او عن مفهوم المتكلم، حتى عندما ينتمي المتكلم والمستمع إلى نفس الثقافة والبيئة الاجتماعية. كان على مدّرب الفريق الرياضي أن يجد حلاً لمشكلة الادمان

على شرب العرق، وقد أثرت الايمان لدرجة كبيرة على اداء احد اللاعبين. فأتى بكوبين. ملء أحدهما مياه عذبة، والآخر عرق بلا ماء. ووضع دودة أرض في الماء، فأخذت تسبح مارحة. ثم انتشلها ووضعها في كوب العرق، فاحترقت لشدة نسبة الكحول فيه وماتت. وتوجه إلى اللاعب المدمن، يسأله: "شو فهمت؟" أجاب محب العرق: "فهمت انو اذا بتشرب عرق، بيقتل كل الدود والجراثيم بجسمك!" إذا معنى الكلام ليس فقط في قلب المتكلم، انما ايضا في فكر وخبرة ومصلة المستمع. لذا انه من الالهية أن يعرف أي متكلم حالة المستمع، ويُأقلم حديثه بحسبها، ليصل إلى غايته.

ولحركات الجسد، وإشارات الأيدي معاني تختلف باختلاف الحضارات، ويُمكن أن تكون جُذ مربةكة ومصدر خجل وإهانة لمن يستعملها بغير مكانها. فللدلالة على المُبالغة في الكلام، مثلا يفتح اللبناي راحتي يديه بشكل دائرة. بينما تعني الإشارة نفسها شتية في الإيطالية، بحيث تعبر عن نية فاعلها بالإعتداء جنسيا على من يوجهها له. والأمثلة في هذا المجال كثيرة. انما اقتصر على القليل منها على سبيل تقديم نموذج.

التوحيد اللغوي: ايجابياته وسلبياته

التوحيد اللغوي هو عملية قولبة لغة او لغات ما في نظام قواعد ومفردات محدد. يُحدد Wardhaugh 2002 في كتابه An

Introduction to Sociolinguistics التوحيد اللغوي كما يلي:

"التوحيد اللغوي هو عملية وضع شيفرة للغة، عبر وضع كتب قواعد، معاجم، وكتب ضبط اللفظ، وحتى كتب تُحدد أنواع آداب اللغة. Standardization refers to the process by which a language has been codified in some way. That process usually involves the development of such things as grammars, spelling books, and dictionaries and possibly a literature."

من الناحية اللغوية، أعني على مستوى المفردات والقواعد، يقوم توحيد اللغة على استنباط وتطوير قواعد الاشتقاق اللغوي، والجمع والتأنيث والتذكير والإعراب وشرح المفردات وتنظيم كيفية اشتقاق واستنباط واستعارة مفردات جديدة. ومن الضروري الإشارة هنا بأن اللغة الفصحى، او اللغة التوحيدية هي تابعة تاريخيا للغات المحكية، ومبنية عليها.

التوحيد اللغوي هو محاولة للسيطرة على اللغة وكيفية استعمالها وانتشارها. لذا تحاول كل حركة توحيد حدّ اللغة التوحيدية في بيئة جغرافية، ديموغرافية وتاريخية معينة. كل إنسان مفطور على السيطرة على العالم من حوله، ويُعتبر التنظيم النظري من أهم أدوات فهم العالم وبالتالي السيطرة عليه. فنحن نرسم خريطة العالم، ونقسّمه إلى خرائط سياسية واقتصادية وطبيعية، وديموغرافية ... بغية فهمه وبالتالي إحكام السيطرة عليه. وأمام ظاهرة اللغات وتعددتها يقف الإنسان منذها، انما يأتي أن تبقى ظاهرة تعدد اللغات خارجا عن سيطرته، لذا سعى وسعى دائما إلى تنظيم هذه الظاهرة ولو نظريا، بغية كنهها والسيطرة عليها. ونحن لا نستغرب أن نرى أن تاريخ البشرية اللغوي هو مسيرة من بابل إلى التوحيد. فالعالم يخسر سنويا العديد من اللغات المحلية، التي تُستبدل بلغات عالمية مثل الانكليزية والاسبانية، والمندرنى والعربي وغيره. إن عولمة اللغات هي حاجة اقتصادية وسياسية وحضارية واجتماعية لا مفرّ منها، وإن أنتت بمن باهظ، ألا وهو إبادة اللغات المحلية، وما تحتوي عليه من تراث حضاري وفكري واجتماعي وأخلاقي.

التوحيد اللغوي هو أيضا باب خلاص للغات المائنة، مثل اللاتني واليوناني الكلاسيكي والآرامي. فالتوحيد هنا يُجمّد اللغة إلى حد بعيد بغية الحفاظ عليها في معجمات وكتب الدرس. ويتميز توحيد اللغات الحية بأنه أقل جمادا، بل مفتوح لاستعارة واستنباط مفردات جديدة وتغيير في القواعد. ويبقى أن نشير إلى أن اللغات التوحيدية هي مائنة بقدر ما تبعد عن لغة العامة المحكية. فاللغة العربية

الفصحى مثلاً، وبحسب علماء اللغة المتخصصين فيها (cf. Haeri 1996) هي لغة مانتة. واللغة المانتة تحديداً هي التي لا تُحكى في أي مجتمع، وليس من خيار لمن يُريد أن يتعلمها إلا أن يدرسها في نطاق مدرسي. ولربما قائل يقول بأن اللغة العربية محكية في أغلب البلدان العربية؛ إنما يغفل مثل هذا عن أن ما يُحكى في المجتمعات المدعوة بالعربية إنما هو لغاتٍ محلية، تشابهت في أغلب الأحيان مع اللغة العربية الفصحى، إنما لها جذورٌ أيضاً في لغاتٍ أخرى عديدة.

ليس من الضروري أن تكون كل لغة توحيدية لغة فصحى. بل غالباً ما تتبى شعوب مختلفة لغة عامية، تكون لها مشتركة وبالتالي توحيدية فيما بينها. كاللغة الهلينية مثلاً، وهي شكلٌ عامي للغة اليونانية، انتشر في الامبراطورية اليونانية خارج اليونان. ويُحدد السيد Wardhaugh 2002, p. 40 لغة الكونية *Koine* بأنها:

"لغة مشتركة بين عدة شعوب. ويمكن أن تكون اللغة الأم لبعضهم." Wardhaugh (2002, p. 40) "a koine is a form of speech shared by people of different vernaculars-though for some of them the koine might itself be their vernacular. A koine is a common language, but not necessarily a standard one."

أهداف التوحيد:

لعامل توحيد اللغة أكثر من هدف وأهمية. فهو ضروري بـمكان لتسهيل العلاقات التجارية والتبادل الثقافي والحكم السياسي، ونشر العلم والمعرفة، والمعتقدات الدينية والأخلاقية بين الشعوب المختلفة. فمع ظهور أول حضارة بشرية مدنية في سوريا وبلاد ما بين النهرين (العراق) تطورت لغة توحيدية لتسهيل التمازج الحضاري بين شعوب منطقة الهلال الخصيب، وهي اللغة الآرامية، التي استندت بالطبع إلى اللغات المحلية الموجودة في الهلال الخصيب آن ذاك، مثل العبرية، والسريانية، والفينيقية، والأوغارتية، والآشورية والكلدانية وغيرها.

غالباً ما يكون للانتصارات العسكرية والسياسية التأثير الأكبر في انتشار لغة توحيدية معينة دون سواها، أو تأثير لغة محكية محلية معينة على اللغة التوحيدية الإقليمية دون سواها، إنما تبقى التجارة والدين من أهم الأسباب لانتشار أي لغة توحيدية. تكلم أهل لبنان الأقدمون، أعني الشعب الفينيقي الكنعاني، لغاتٍ محلية مختلفة، باختلاف الشعوب المكونة للشعب الفينيقي الكنعاني اللبناني. وبالطبع أدى تمازج الشعوب الصغيرة في لبنان منذ القديم إلى تطوير اللغة اللبنانية. فاللغة تتأثر متأثراً مباشراً بظروف بيئتها الجغرافية والتاريخية. فلغة سكان المدن تختلف عن لغة أبناء الريف، وللغة أهالي الجبال مميزات الخاصة التي تميزها عن لغة أهل السهل أو الشاطئ. عبر التاريخ احتلت شعوبٌ عديدة لبنان منها من الداخل السوري، وبلاد ما بين النهرين، ومصر الفرعونية، واليونان الهلينية والبيزنطية، وروما اللاتينية، وعرب شبه الجزيرة الإسلام، والصليبيين الأوروبيين، ثم المماليك المصريين، والأتراك، ثم الفرنسيين والإنكليزي وغيرهم كثر. وكان من الطبيعي أن تتحول لغة السكان المحليين في لبنان لتخدم حاجاتهم في التأقلم مع هذه الفتوحات. فتكلم اللبنانيون عبر العصور، وبخاصة أبناء المدن التجارية، الآشورية، والفرعونية، والهلينية، واللاتينية، والعربية، والتركية والفرنسية، والاطليانية، والإنكليزية وغيرها. وربما يسأل القارئ: ماذا بقي من لغة أسلافنا الذين سكنوا لبنان جبلاً وساحلاً منذ ستة أو حتى خمسة عشر ألف سنة؟ الجواب هو أنّ تلك اللغة أو اللغات التي وجدت في هذه البقعة من الأرض لم تضمحل، إنما تحولت بشكل ديناميكي، مع تحول شعب الأرض، وانصهرت بلغات الفاتحين والتجار والمبشرين وتأقلمت مماشية التغييرات الديموغرافية والاجتماعية والتكنولوجية والعلمية لتصير ما هي عليه اليوم.

فاللغة اللبنانية الحديثة ليست لهجة عربية، أو متحدرة من السريانية، بل هي مزيج ديناميكي أخذ من السريانية منطقه وقواعده، ومن العربية الكثير من المفردات، كما أخذ ولا زال من اليونانية والتركية، والايطالية والفرنسية والانكليزية وغيرها.

التخطيط اللغوي

من أشهر الأمثلة عن التوحيد اللغوي في التاريخ، هو تأسيس الأكاديمية الفرنسية سنة ١٦٣٥ على يد Richelieu، في حقبة كانت فرنسا تعجُ بعدة لغات محلية، ويوم كان الشعب الفرنسي بأغلبه أمي، ووعي الوطني ضعيف. أسست الاكاديمية الفرنسية بغية توحيد (codification) اللغة الفرنسية على مستوى اللفظ والكتابة والمفردات والقواعد. وراء هذا الهدف اللغوي كان للملك هدف سياسي، ألا وهو تقوية الحس الوطني عند الفرنسيين وتوحيدهم ثقافياً. علماً أن لغة باريس le Français de Paris لم تكن معروفة خارج باريس وضواحيها، باستثناءاتٍ طفيفة.

ولم يخلُ التاريخ من محاولات توحيد لغوي مبرمجة مماثلة في أمريكا، انكلترا، والدول الإسلامية العربية، والصين وغيرها. فشلت بغالبها، أو بأحسن حالاتها ضلّت غايتها المنشودة، ف جاء سيعها للتوحيد سببا أساسيا لتنشيط حركات الوعي القومي المحلي، وتفعيل اللغات المحلية التي من شأنها بلورة الوعي والانتماء القومي المحلي.

ويشهد التاريخ المعاصر محاولات توحيد لغوية في كل من إسرائيل حيثُ تفرض اللغة العبرية لأسبابٍ سياسية واجتماعية تبغي توحيد أهل الأمة وعزلهم عن محيطهم العربي. كذلك في الهند حيث تسوّق اللغة الهندية مدعومة من قبل النظام السياسي لكي تحمي اللغات المحلية ولغات الفئات الاجتماعية المختلفة وتتربع على عرشها. كذلك في غينيا الجديدة حيث تفرض لغة الـ"طاق بيسن" (Tok Pisin)، وفي أندونيسيا (لغة باهسان اندونيسيا)، وفي تنزانيا (لغة سويهيللي)، وغيرها كثر، لتحل محل اللغات المحلية المختلفة بغية خلق وحدة قومية (Cf. Wardhaugh 2002, p. 33-38, & Trudgill 2000, p. 135). وتقضي سياسة توحيد اللغة باختيار لهجة أو لغة معينة وتطوير مواردها واستعمالاتها، وفرض تعلمها واستعمالها على مجتمع ما، بهدف خلق وحدة قومية، عرقية، أو دينية أو غيرها.

محاولة إحياء بعض اللغات البائدة

اللغة المائنة هي تحديداً اللغة التي لا يتكلمها أي مجتمع عفواً، بل بعض الافراد عن طريق الدرس. وربما اختلف الرأي بين علماء اللغة فاعتبرت قلة بينهم أن كل لغة محكية بغض النظر ما اذا كان متكلموها قد تعلموها في المدرس والكتاب أم في البيت الوالدي، هي لغة حيّة. يبقى أن الرأي الراجح هنا، هو أن كل لغة لا يتعلمها متكلموها عفواً في البيت والشارع هي لغة مائنة. وبحسب اللغوية الحديثة Haeri, N. (1996) المتخصصة في درس اللغة العبرية الفصحى ولغات البلدان العبرية المحكية، فإن اللغة العبرية الفصحى هي لغة مائنة، إذ لا يمكن تعلمها إلا في جو مدرسي "in a school setting".

إن محاولة إعادة إحياء بعض اللغات البائدة، يشبه إقتناء العتيق من الأثاث، انما بهدف الزينة لا الاستعمال. مثل اقتناء مكواة قديمة تعمل على الفحم بغرض عرضها في البيت لا استعمالها لكي الملابس. فإن تقنطع آلة ما من بيتنها الإجتماعية فأنت قاتلٌ لها أو محوّرٌ وجهة استعمالها بأحسن تقدير. ولنا على سبيل المثال محاولة إعادة إحياء اللغة العبرية في إسرائيل، والأجدر بنا أن نصف تلك المحاولة بإعادة صياغة اللغة العبرية. فاللغة كائنٌ حي، يعيش في قلوب الناس وفكرهم ما داموا أحياء. فإذا تخلوا عنها بردت تدريجياً وماتت. لكنّ الناس كما سبق وشرحنا لا يتخلون عن لغتهم، إنما يحوّرونها ويغيرون ظاهرها لكي تستمر تحت شكل جديد وربما اسم جديد.

إنّ الإدعاء بإمكانية إعادة إحياء لغة ما اعتماداً على ما دُوّن منها، هو إدعاءٌ غير منطقي وبالتالي غير قابل للتطبيق. فكيف يمكن استخراج الحياة من الكتاب الميت؟ فكل لغة لهجاتها التي غالباً ما لا تكتب، وطرق لفظها، واستعمال مفرداتها وغيرها من الخصائص التي يصعب تدوينها وشرحها، وبالأكثر فهمها على من يجهل هذا اللغة أصلاً. اللغة هي الحافلة الثقافية للشعب الذي يتكلمها، فإن مات شعبها، ماتت هي معه. لا تعيش اللغة في الكتب والقواميس مهما كانت هذه الكتب دقيقة، بل في الناس الذين يستعملونها، ويطورونها كل لحظة. بالتالي إنّ الكلام عن إمكانية إعادة إحياء لغة مائته هو غير دقيق، ويجدر بنا التكلم بالحري عن "إعادة صياغة جديدة للغة بناءً على ما وصل إلينا من لغة بائدة".

أدوات التوحيد:

سبق وشرحنا أن ظاهرة توحيد اللغات، أي أن تُسيطر القوية منهن على الصغار، هي ظاهرة طبيعية، لا تحتاج إلى تخطيط مسبق. لكن هذا لا يمنع وجود مشاريع توحيد لغوية مبرمجة. ليس هناك من خطٍ فاصل بين ظاهرة توحيد لغوي عفوية وأخرى مبرمجة ومُسيّسة. فالبشر جماعاتٍ وفراد لم يبرحوا يحاولوا بسط سيطرتهم على بيئتهم من خلال فرض معتقداتهم الفلسفية والدينية وتقاليدهم الاجتماعية ولغاتهم. فاللبناني مثلاً يُحاول فرض لهجته ولغته على الغرباء في لبنان، وعى ذلك ام لا. وإذا سألت مصرياً أن يُعلمك اللغة العربية، فالارجح أن يعلمك اللهجة واللغة المصرية عفوية. ويعتقد اهل العراق أن لغتهم العربية افضل واصح من لغة غيرهم من المجتمعات العربية، وكذلك اللبنانيون، وهكذا دواليك. وهذا أمرٌ طبيعي، أعني أن يفخر الانسان بلغته ولهجته ويحاول نشرها على حساب غيرها.

وفي هذا الصدد سأعدد أهم أدوات نشر لغة توحيدية، سواء كان هذا التوحيد مبرمج ام عفوي.

المؤسسات السياسية: وتُعنى بتوزيع موارد الدولة أو المجتمع وتوظيفها ضمن برامج تُسهّل عملية التوحيد اللغوي.

المؤسسات التربوية: المدارس، المكتبات، الجامعات، والمؤسسات المعنية بوضع الكتب التعليمية وتسويقها. تلعب المؤسسات التربوية دور السلطة التنفيذية لمخطط المؤسسة السياسية. فتُبيّن للتلاميذ احداثاً وبالغين، أهمية استبدال لغاتهم المحلية باللغة التوحيدية وكيفية استعمال هذه الأخيرة، والاستفادة منها، وضرورة نشرها.

المؤسسات الإعلامية: المطبوعة، المسموعة او المرئية، تسعى إلى تحبيذ الناس باللغة التوحيدية، إمّا عن طريق الترغيب او الترهيب. وذلك بالتركيز على إظهار محاسنها وطمس مساوئها.

المؤسسات العلمية: يدعى دُعاة العلم بأنه شمولي، وليس حصراً على فئة معينة من الناس. لذا غالباً ما نرى العلماء يستخدمون لغة توحيدية او لغة عالمية لنشر علمهم. مشرعين بذلك أبواب اقتباس العلم وتطويره على عددٍ أوفر من العامة.

المؤسسات الدينية: الكنائس، الجوامع، المؤسسات التربوية الدينية، والحركات الدينية وغيرها، تسعى إلى ربط اللغة التوحيدية بالدين وبالتالي بالهوية الدينية للشعب. كأن تركز الكنيسة المارونية على هويتها السريانية عبر الحفاظ عليها في ليتورجيتها، وفرضها كلغة قانونية لمنشوراتها الرسمية، وتشجيع ابنائها على درسها، باعتبارها لغة السيد المسيح تاريخياً. أو أن يقول الاسلام بقدسية اللغة العربية الفصحى، مؤمناً بأن القرآن أنزل بها، وأن من يتكلمها هو أعلى شأناً من بقية المسلمين.

وتكثر هنا الامثال عن اعتناق الاديان للغة ما، قدسوها وسوقوها كلغة توحيدية. ويُظهر الجدول التالي بعض هذه الاديان ولغاتها

التوحيدية على سبيل المثال، لا الحصر.

جدول ارتباط بعض الاديان بلغات معينة وتقديسها

اسم الدين	اسم اللغة التوحيدية
اليهودية	عبري
المسيحية السريانية	سرياني
المسيحية البرنطية	يوناني
المسيحية اللاتينية	لاتيني
المسيحية البروتستنتية اللوثرية	الماني
المسيحية البروتستنتية الانغليكانية	انكليزي
المسيحية الارمنية	ارمني
المسيحية القبطية	قبطي
المسيحية الكلدانية	كلداني

ارتباط اللغة العربية الفصحى بالدين الإسلامي

غالبا ما تتبنى الاديان لغة معينة تقديسها، وترتبط بها دون سواها لفترة زمنية وظروف محددة. فالديانة اليهودية مثلا اقترنت باللغة العبرية، كما تبنت الديانة المسيحية اللغة الأرمية في الهلال الخصيب، واليونانية في بيزنطية، واللاتينية في القسم الغربي من الأمبراطورية الرومانية، وبالإلمانية في بعض الجماعات البروتستنتية. واتخذ الدين الإسلامي من لغة قريش العربية قرينة، وقد دُون القرآن فيها.

لقد أردتُ من خلال عرض للعلاقة بين اللغة والدين، وتحديدًا بين اللغة العربية والدين الإسلامي إظهار أهمية اللغة في تحديد الهوية الدينية والعرقية. وكما سبق وذكرتُ ليست ظاهرة إقتران اللغة العربية الفصحى بالدين الإسلامي فريدة من نوعها، بل نقلت عن ظواهر سابقة لها. إنما إنقائي لظاهرة إلزام مصير اللغة العربية الفصحى بالدين الإسلامي، يدفعه المغالاة حتى التطرف في هذه الظاهرة التي تعدت سابقاتها من الظواهر المماثلة، وإن كانت قد بنت عليهم تاريخيا.

بدأ اللغة العربية، وبحسب تحديد مكتبة الكونغرس الأمريكي لها (<http://lcweb2.loc.gov/frd/cs/lbtoc.htmlcf>) هي:

اللغة الرسمية والدينية لكل من الإسلام، الدروز وبعض الجماعات المسيحية. Arabic is the official language, as well as the religious language for Muslims, Druzes, and some

إن أقدم ذكر للغة العربية في التاريخ وصلنا من مخطوطات آشورية، تروي أحداث حروب الأشوريين مع العرب بين سنة ٨٥٣ و ٦٢٦ قبل ميلاد يسوع المسيح. وقد عُثِر على عدّة كتابات عربيّة بأبجديات مختلفة في شبه الجزيرة العربية. Christian communities. Like Hebrew and Aramaic, it is a Semitic language. One of the earliest recorded instances of Arabic is found in an Assyrian account of a war fought with Arabs between 853 and 626 B.C. Arabic inscriptions in various alphabets have been found on the

في القرن السادس للميلاد، أيام النبي محمد، Arabian Peninsula. By the time of the Prophet Muhammad (sixth century A.D.), Arabic had developed into a refined literary language. The Arab conquest brought it to Lebanon. ومصر.

إذا اللغة العربية قديمة نسبياً، وقد عرفت أشكالاً عدّة للكتابة قبل الإسلام بأكثر من ألف سنة. وهي نفسها كما غيرها من لغات عصرها، مزيج من عدّة لغات قبلية. حتى لسان قريش أيام النبي، لم يكن موحداً، بل كما يُشير معنى اسم قريش (أي تجمّع)، فإن قريش تكونت من عدّة قبائل، تكلمت لغات متباينة. إن العرب، وبحسب أصل كلمة "عرب" من اللغة الأرامية، هم خليطٌ من أهل الغرب (راجع الحريري، ١٩٩٠، ص. ٦١-٦٦). ودعاهم كذلك الشعب الآرامي لأنهم استوطنوا شمال شبه الجزيرة العربية الصحراوية. تألف العرب، كغيرهم من شعوب الهلال الخصيب في الألف الأولى بل الميلاد من مزيج أعراق بشرية مختلفة، ويجمع بينهم:

سكنهم في منطقة جغرافية واحدة، هي شمال شبه الجزيرة العربية، الصحراوية، الفقيرة.

مشاركتهم لنمط حياة يعتمد على الترحال المستمر، والبداوة في العيش وعلى غزو القوافل التجارية العابرة في منطقتهم، وذلك بسبب فقر أراضهم وإضطرارهم إلى كسب معيشتهم بواسطة الغزو.

تنظيمهم الاجتماعي في قبائل، إستأثر فيها الرجال بالسلطة.

تكلمهم لغات سامية متشابهة بعض الشيء.

ويُفسّر الحريري ١٩٩٠، ص. ١٤٩ تباين ألسن العرب:

"يقول الطبري: "كانت العرب، وان جمع جميعها إسمُ أنهم عرب، فهم مختلفو الألسن بالبيان، متباينو المنطق والكلام. ويقول أيضاً: "إنّ ألسنتهم كانت كثيرة كثيرة يعجز عن إحصائها" ... ويقول ابو عمرو بن العلاء: "ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا". ويشرح الحريري ١٩٩٠، ص. ٦٦ أصل العرب، يقول:

"إن أقدم نص في العهد القديم (الكتاب المقدس) يتكلم عن العرب، نجده في إرميا (+ ٥٨٠ ق. م.) يتكلم عنهم كشعوب في الصحراء، تائهين بدون مقرّ". يقول إرميا ٢١٣ في وصف المرأة الزانية: "لقد قعدت لهم كالأعرابي في البادية، ودنست الأرض بزناك وفجورك" وهو يقصد بذلك أن هناك صلة وثيقة بين الاعرابي والبادية، بين العربي وحياة الفقر والبداوة، وأيضاً بين البدوي وحياة الزنى والفجور والأرض المدنسة."

تضاربت أراء مؤرخي الإسلام حول هوية اللغة التي أنزلَ بها القرآن بحسب اعتقادهم. فمنهم من يقول بأن الإنزال كان بلسان قريش، كقول "عمر بن الخطاب: "لا يميلن في مصاحفنا هذه إلا غلمان قريش"، وما روي عن عثمان للجنة التي أوكل إليها جمع القرآن، قال: "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش. فإنما أنزل بلسانهم. ففعلوا". وغيرهم يقول بأن القرآن نزل بلغة "هذيل" و"تقيف" وهما قبيلتين عربيتين (راجع الحريري، ١٩٩٠، ص. ١٩٠-١٩٣، وجواد علي، المفصل في تاريخ العرب). وما يهمننا هنا هو العلاقة الوثيقة بين اللغة العربية الفصحى، بغض النظر عن هويتها وأصولها، وبين الدين الاسلامي. وتكثر الأقوال في هذا الموضوع، لكني ولضيق المجال هنا، أخترتُ منها ما قلّ ودلّ:

أشار النبي إلى هذه العلاقة الوثقى وأشاد. قال: "إذا عزّ العرب عزّ الإسلام، وإذا ذلّ العرب ذلّ الإسلام (حديث أورده الطبري وسائر المحدثين). وقال (النبي): "أحبُّ العرب لثلاث: لأنّي عربي، والقرآن عربي، ولسانُ أهل الجنّة في الجنّة عربي... ومن أحبّ الله ورسوله أحبّ العرب ولغتهم العربية".

واعتبر الدكتور عبد العزيز الدوري "الترابط بين الإسلام والعروبة، تاريخا وواقعا، أرضية عامة للأمة العربية، وأساسا في تحديد الهوية. ومنير شفيق رأى "ان كلمة المسلمين او الشعوب الاسلامية تتضمن فور العرب أو الامة العربية". وقال ان "وحدة عضوية بين الاسلام والامة العربية من حيث تكوينها الاساسي". ... ويعتبر الدكتور الحبيب الجحاني "ان الانصهار بين مفهومي العروبة والاسلام هو انصهار كلي... وكل محاولة للفصل بين الثقافة العربية والاسلام هو محاولة تعسفية... ويعتبر الدكتور عبد القادر زبادية "الدين الاسلامي قاعدة متينة للقومية العربية الصحيحة... لأن واقعية القومية العربية تنبعث من حضارة الاسلام." (راجع الحريري ١٩٩٠، ص. ١٥-١٧).

وأیضا بحسب المرجع نفسه، صفحة ٦:

"اللغة العربية هي لغة اهل الجنة، ولغة آدم في الفردوس، ولغة اسماعيل بعد أن هداه الله، ولغة كتاب الله المنزل. هي به "ستبقى بمنجاة من هذا الموت. وستبقى حية في كل زمان، مخالفة لنواميس الطبيعة التي تسري على سائر لغات البشر." شرح سليمان ٢٠٠٣، ص. ٤٣ العلاقة المميزة بين اللغة العربية والقرآن، فكتب:

يوضح القرآن ١٢:٢ بأن in Qur'an 12:2 the point is made that Muhammad's revelation was in Arabic: 'inna anzalnahu qur'anān 'arabiyyan' [which means:] (We have sent it down as an Arabic Qur'an'). This is made in the form of an emphatic statement which sets out God's will and His desire in a way that favours the language in cosmic terms. This fact is underlined in Qur'an 26:195, where the language of the revelation is described as 'perspicuous' محمد تلقى الوحي بالعربية: "إنا أنزلناه قرآنا عربيا". فالله هنا يُفضل اللغة العربية على غيرها. ويصف القرآن هذه اللغة بأنها "لسانٌ مُبين".

Arabic (mubin).

إنَّ هذه العلاقة الحميمة بين اللغة العربية والدين الاسلامي، أدت إلى استقرار هذه اللغة، لا بل تحجيرها وجعلها غير قابلة للتطور والتغيير، وهذا ما يناقض الطبيعة الديناميكية لأي لغة بشرية. إن تحجير اللغة العربية الفصحى أدى إلى شرح بينها وبين السامية المحكية في الدول العربية. وتوسع هذا الشرخ على مدى السنين، أي منذ حوالي ١٤٠٠ سنة، لكي يؤمن الاستقرار اللازم للغة القرآن العربية الفصحى، وقد أصبحت غير قابلة للتغيير والتطوير، ولكي يُعطى حربة تطوير اللغات المحلية وهو أمرٌ ضروري لاجل حياة شعوبها.

وما عجز اللغة العربية الفصحى اليوم عن دخول بيوت الناس وحياتهم اليومية، رغم الدعم الكبير والتسويق الذي تحظى به من قبل الدين الاسلامي وسُعاة العروبة، وعجزها عن أن تكون لغة العلوم والأبحاث في الدول العربية، إلا دليل على عدم قدرتها على التطور والتغيير لمواكبة تطور مجتمعات الدول العربية.

خاتمة

غالبا ما تفوق الأسئلة التي تتولد عن الأبحاث العلمية الأجوبة التي يصل إليها الباحث. لذا كان من الأهمية في ختام هذا البحث إعادة تسليط الضوء على بعض النقاط التي درسنا في هذا البحث، وهي أيضا لا تزال أسئلة على بساط البحث، ويمكن أن تكون مادة دسمة لدراسات جديدة في مجال علم اللغات الاجتماعية.

(١) ماهية اللغة؟ جذورها التاريخية، ظروف، سُئل وغاية تطويرها؟

- ٢) ظاهرة تعدد اشكال اللغة الواحدة، وتعدد اللغات، وتمازجها ببعضها بعض.
 - ٣) علاقة الهوية الاثنية، الدينية، الاجتماعية، السياسية والثقافية مع اللغة.
 - ٤) ظاهرة التوحيد اللغوي العفوي والمبرمج: إلى أين؟ إيجابياتها وسلبياتها.
 - ٥) تحديد اللغة بأنها رغبة الفكر في التجسد في الكلام واللفظ والكتابة، بغية وعي ذاته والتواصل مع العالم من حوله. فدراسة العلاقة بين الفكر والكلمة وتجسيدها من خلال لفظها او كتابتها هي موضوع بحث طويل، يُمكن أن يُتناول من ناحية فلسفة المعرفة epistemology أو علم الألسنة linguistic، فيغني مفهومنا للعالم من حولنا وكيفية إعادة صيغاته في فكرنا، قصد فهمه وبالتالي السيطرة عليه.
- كما ولفت هذا البحث النظر إلى أهمية اللغة في درس وفهم الهوية الاثنية، الحضارية، الدينية، الاجتماعية والجنسية ... لمتكلميها، افرادا وجماعات.
- أخيرا أملا أن يكون هذا البحث وقد أهلني للتواصل معك عزيزي القارئ، قد ساعدك على فهم عالمك أكثر والتواصل مع بيتك ومجتمعك بطريقة اوضح واكثر فعالية.

References List

- Abdulmoneim, M. (2000). Modern Standard Arabic vs. Non-Standard Arabic: Where do Arab student of EFL transfer from? *Language, Culture And Curriculum, vol. 13, No. 2*, 126-136.
- Al-Hariri, A. M. (1990). *Is he an Arab? A research in the Arabic Identity of Islam*. Diar Akl, Lebanon: The hard truth series.
- Al-Hariri, A. M. (1991). *A Priest and a prophet: A research in the genesis of Islam*. Diar Akl, Lebanon: The hard truth series.
- The Attica Interactive World Atlas. Computer software version 1996. St. Clements, Oxford, UK.
- Bacha, N. (Feb. 2001). Writing evaluation: What can analytic versus holistic essay scoring tell us? *Elsevier Science Ltd. PII: S0346-251X (01) 00025-2, Lebanese American University, Byblos, Lebanon, 371-383*.
- Badran, H. A. (2001). Extraversion/ introversion and gender in relation to the English pronunciation accuracy of Arabic speaking college students. *College of Education, Mansoura University, Mansoura, Egypt 35516, 1-34*. Reproduction Release by ERIC Clearinghouse on Assessment and Evaluation, 1129 Shriver Laboratory (Bldg. 075), College Park, Maryland 20742.
- Bartelt, G. H. (Feb. 1997). The ethnography of second language production. In *IRAL*, 23, 23-35.
- Bridges, W. (1993). *Managing transitions: Making the most of change*. Persus Books, Massachusetts. (cf. www.aw.com/gb/)
- The Economist. (September 13th, 2003). In the Name of God: A Survey of Islam and the West: 1) In the Name of Islam, 2) The gods that failed, 3) Two countries, 4) Two theories, 5) Islam and democracy, 6) The problem of the *umma*, 7) Islam in the West, 8) Whose war is it anyway? *The Economist, 1-16*. (Cf. Economist.com/surveys).
- Goldstein, T. (2003). *Teaching and learning in a multilingual school: Choices, risks, and dilemmas*. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum Associates, Inc., Publishers.
- Guillermo, B. H. (Feb. 1997). The ethnography of second language production. *IRAL vol 35, 23-35*. Retrieved via WilsonSelectPlus on September 29, 2003.
- Haeri, N. (1996). *The Sociolinguistic Market of Cairo: Gender, Class, and Education*. Kegan Paul International, London & New York.

Haeri, N. (2003). Arabs Need to Find Their Tongue, <http://www.aljazeera.info/Opinion%20editorials/2003%20Opinion%20Editorials/June%202003%20Opinion/15o/Arabs%20Need%20to%20Find%20Their%20Tongue,%20Nilooofar%20Haeri.htm>. Retrieved on March 13th, 2004.

Hayden, D. E., Alworth, P. E., & Tate, D. (1967). *Classics in Linguistics*. New York: Philosophical Library.

Hinkel, E. (2000). *Culture in second language: Teaching and learning*. New York City: Cambridge University Press, (2nd printing).

Hitti, P. K. (1986). *History of Arabs*. Beirut, Lebanon: Gandour Publishing House (Arabic edition).

Hitti, P. K. (2002). *History of Arabs revised*. New York City: Macmillan.

Hitti, P. K. (2002) *History of Syria including Lebanon and Palestine*. Vol. 1, 2. New Jersey: Gorgias Press LLC

Homans, G. (1950). *The human group*. New York: Harcourt, Brace & World, Inc.

Iannaccone, L. (1975). Practitioners and researchers: The what and why of concepts. *Educational Policy Systems: A Study Guide for Educational Administrators*, 11-19. Fort Lauderdale, FL: Nova University.

Illiteracy in Lebanon. (2004). UNESCO. Retrieved Feb. 22nd, 2004, from <http://stats.uis.unesco.org/eng/TableViewer/wdsview/>

Jacobi, G. M. et alt. (September-October 1996). Student access and the "new" immigrants: Assessing their impact on institutions. *Helen Dwight Educational Foundation 1996, vol 28, no 5*, 40-47. Retrieved via WilsonSelectPlus on September 27, 2003.

Lakkis, K., & Abdel-Malak, M. (2000). Understanding the transfer of prepositions: Arabic to English. *Forum, Vol 38, No 3, September 2000*. Retrieved October 8th, 2003, from <http://exchanges.state.gov/forum/vols/vol38/no3/p26.htm>

Lebanon (2005). Central Intelligence Agency. Retrived November 29, 2005, from <http://www.cia.gov/cia/publications/factbook/geos/le.html#People>

"Lebanon (country)," Microsoft® Encarta® Online Encyclopedia 2005 <http://encarta.msn.com> © 1997-2005 Microsoft Corporation. All Rights Reserved.

Lier, V. L. (1996). *Interaction in the language curriculum: Awareness, autonomy and authenticity*. New York: Longman Publishing.

- Lofland, J. & Lofland, L. H. (1995). *Analyzing social settings: A guide to qualitative observation and analysis*. Belmont, CA: Wadsworth Publishing.
- Mahfouz, P. J. (1984). *Précis d'histoire de l'Eglise maronite*. Kaslik, Lebanon: USEK Publication.
- Mansour, A., Souadidan, T., et al. (2001, Feb.). The crisis of education in the Arab World and its menace/implications on the future of the nation. Aljazeera. Retrieved November 18, 2003, from http://www.aljazeera.net/programs/no_limits/articles/2001/2/2-24-1.htm
- McKay, S. L., & Hornberger, N. H. (1996). *Sociolinguistics and language teaching*. (7th printing 2002), New York City, NY: Cambridge University Press.
- Miles, M. B., & Huberman, M. A. (1984). *Qualitative data analysis: A sourcebook of new methods*. Beverly Hills, CA: SAGE Publications.
- New American Bible, 1991, Liguori Faithware Bible for Windows edition. Book of Genesis 9:18, 10:6, 15, & 1st book of Chronicles 1:8 & 13.
- Rahi, T. (2005). Factors influencing students' academic performance at a Middle-Eastern American oriented university in Lebanon: educational management and analysis. Notre Dame University of Louaize Press: Lebanon.
- Rešid Hafizović (2004). The characteristics of the Muslims thought at the end of the 20th century. Ibin-sina.net, retrieved on March 15, 2004 from http://www.ibn-sina.net/znakovi/2-3/the_characteristics.html.
- Robledo, G. (1978). *EOPS. The establishment of an educational innovation: A study of organizational de-marginalization*. Santa Barbara, CA: University of California at Santa Barbara.
- Sagor, R. (1993). *How to conduct collaborative action research*. Association for Supervision and Curriculum Development Alexandria, Virginia USA.
- Saleh, S. J. (May, 1998). L'influence des polysèmes de la langue maternelle sur l'apprentissage du vocabulaire en langue étrangère. *IRAL vol 36, no 2*, 161-171. Retrieved via WilsonSelectPlus on September 29, 2003.
- Saudi Arabia decides to introduce/implement English Language in its elementary schools' curricula. (2003, August). Aljazeera. Retrieved November 18, 2003, from http://www.aljazeera.net/art_culture/2003/8/8-26-1.htm. (Arabic version).
- Saudi Arabia refuses to change its educational and religious curricula. (2002, October). Aljazeera. Retrieved November 18, 2003, from <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2002/10/10-27-10.htm>. (Arabic version).

Smith, A. D. (1991). *National identity* (Harmondsworth: Penguin Books).

Spradley, J. P. (1979). *The ethnographic interview*. Orlando, FL: Holt, Rinehart & Winston, Inc.

Spradley, J. P. (1980). *Participant observation*. USA: Wadsworth, Thomson Learning.

Suleiman, Y. (2003). *The Arabic Language and National Identity*. Georgetown University Press, Washington, D.C.

Suwaidan, T. (2001). *The Crisis of Education in the Arabic World and its Potential Danger on the Arabic Nation*. In www.aljazeera.net, in Arabic (32 pages).

Trudgill, P. (2000). *Sociolinguistics: An Introduction to Language and Society*. (4th ed.), Penguin Putnam Inc. NY: New York City.

Wardhaugh, R. (1996). *An introduction to sociolinguistics*. (4th ed. 2002). Malden, Massachusetts: Blackwell Publishers Inc.